



عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

صورة السلطان في دولة التّرك في الشّعر العربي خلال الفترة

"648هـ - 784هـ": دراسة موضوعيّة وفنّيّة

ألّفت عبد الرؤوف سعيد إنجاص

رسالة ماجستير

القدس - فلسطين

1441هـ - 2019م

صورة السلطان في دولة التّرك في الشّعر العربي خلال الفترة

"648هـ - 784هـ": دراسة موضوعيّة وفنّيّة

إعداد

ألفت عبد الرؤوف سعيد إنجاص

بكالوريوس اللّغة العربيّة وآدابها - من جامعة بيرزيت/ رام الله - فلسطين

المشرف: د. محمّد بنات

قدّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها من

كلية الآداب/ عمادة الدّراسات العليا / جامعة القدس

1441هـ - 2019م



جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج اللغة العربية وآدابها

إجازة الرسالة

صورة السلطان في دولة التّرك في الشّعر العربي خلال الفترة

"648هـ - 784هـ": دراسة موضوعية وفنية

اسم الطالبة: ألفت عبد الرؤوف سعيد إنجاص

الرّقم الجامعي: 21611127

المشرف: د. محمّد بنات

نوقشت هذه الرّسالة وأجيزت بتاريخ 7 / 12 / 2019م من أعضاء لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم،

وتواقيعهم:

..... التوقيع: 

1. د. محمّد بنات: رئيس لجنة المناقشة

..... التوقيع: 

2. أ. د. مشهور الحبّازي: ممتحنًا داخليًا

..... التوقيع: 

3. د. زين العابدين العواودة: ممتحنًا خارجيًا

القدس - فلسطين

1441هـ - 2019م

الإهداء

إلى مَنْ سارَ معي نحو تحقيق حلمي خطوة بخطوة، إلى رفيق دربي وتاج رأسي، زوجي الغالي.

إلى مَنْ أرضعتني الحب والحنان، إلى القلب الناصع بالبياض، والدتي الحبيبة.

إلى مَنْ علمني القوة والإصرار، وأزاد به عزّة وافتخارًا والدي العزيز.

إلى مَنْ شاركني حُزن الأم، وبهم استمد عزمي وإصراري، إخوتي وأخواتي.

إلى كلّ مَنْ شجعتني وساعدني على إتمام هذا العمل.

إلى كلّ هؤلاء أقدم عصارة فكري ومداد كلماتي.

إقرار

أُقرّ أنا معدّة هذه الدّراسة بأنّها قدّمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وهي نتاج جُهدِي الخاص، باستثناء ما تمّت الإشارة إليه حيثما ورد، وأنّ هذه الدّراسة أو أي جزء منها لم يُقدّم لنيل أي درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.

التوقيع:.....

ألقت عبد الرؤوف سعيد إنجاص

التاريخ: 2019/12/7م

الشكر والتقدير

بعد أن أنهيت هذه الدراسة بحمد الله تعالى، أتقدم بالشكر والتقدير والامتنان، للدكتور محمد بنات الذي أشرف على رسالتي، وكان لي خير موجه ومرشد، ولم يبخل عليّ بعلمه، ووقته، وجهده، وتوجيهاته، حتى رأى هذا البحث النور.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة ومناقشتها. ولن أنسى أن أزجي شكري الخاص لزوجي " د. هشام" لما قدمه له من مساعدة منذ اللحظات الأولى في عملي هذا.

وأخيراً أسأل الله التوفيق والسداد

ألفت عبد الرؤوف إنجاص

المُلخَص:

تتناول هذه الدّراسة صورة السّلطان في دولة التّرك في الشّعر العربيّ خلال الفترة "648هـ - 784هـ" دراسة موضوعيّة وفنيّة.

إنّ ما دفعني إلى اختيار الموضوع، رغبتني في الكتابة في موضوع يتصل بالشّعر العربيّ في عهد دولة التّرك، إضافة إلى رغبتني في الوقوف على الدّور الذي أدّاه سلاطين دولة التّرك في إنقاذ المشرق الإسلاميّ من أكبر خطرين استعماريين، حيث تألقت أسماؤهم في سماء المجد والبطولة، وشرع الشعراء يتغنون بانتصاراتهم، بالإضافة إلى الكشف عن الوجه الآخر لصورة السّلطان التركيّ، فكان لا بدّ من الوقوف على تلك الأشعار ودراستها دراسة موضوعيّة وفنيّة.

وتكمن أهميّة هذا البحث في أنّه يتطرّق لموضوع درس صورة السّلطان التركيّ الإيجابيّة والسلبيّة دراسة موضوعيّة وفنيّة، حيث شملت هذه الدّراسة السلاطين الأتراك خلال الفترة "648هـ - 784هـ".

واتّبعْتُ في هذه الدّراسة المنهج التكامليّ، من حيث الاعتماد على المنهج التاريخيّ في دراسة الحياة العامّة للدّولة التركيّة، والمنهج التحليليّ في الدّراسة الموضوعيّة، والمنهج الجماليّ في الجانب الفنيّ، والمنهج الإحصائيّ في حديثي عن البحور الشعريّة.

وتوصّلتُ في نهاية الدّراسة إلى مجموعة نتائج أهمّها: بدت صورة السّلطان الإيجابيّة والسلبيّة منها واضحة جلية في الشعر الذي قيل أيّام الدّولة التركيّة، كما ورسم الشعر في هذه الفترة صورة صادقة عن الملاحم الإسلاميّة والأحداث الكبرى، والتي كان للسّلطان دور بارز فيها.

وفي الختام أوصي، بدراسة الموضوع في الحقبة الثّانية من هذا العصر، وعمل دراسة مقارنة بين الحقبتين، أو بين عصريين مختلفين.

The Turkish Sultan Portrait in Arabic poetry, during 648 – 784 a.h (An Objective and Artistic study)

Prepared by: Olfat Abed Araof Said Injas

Supervised by: Dr. Mohammad Banat

Abstract:

This research aims to study the depiction of the Turkish Sultans in Arabic poetry, in the period 648 – 784 AH (1250 – 1382 AD). The study takes into account the different themes and aesthetic aspects of the poetry of this period.

I chose to conduct this research because of my desire to write on a topic that pertains to Arabic poetry in the Turkish state, as well as to contemplate the role played by the Turkish Sultans in rescuing the Islamic Orient from the two largest colonial threats. In such a role, the names of the Sultans grew more resplendent in the fields of glory and heroism, and poets rushed to laud their victories and conquests. In addition, this revealed the other face of the Turkish Sultan, rendering it necessary to contemplate these poems and to study them thematically and aesthetically.

The significance of this paper lies in its concern with studying both the positive and negative depictions of the Turkish Sultans with regards to themes and aesthetics. This research has included a holistic view of a number of Turkish Sultans during the period 648 – 784 AH.

In this study, I have used a mixed approach: I have used the historical approach to study the public life in the Turkish state, the analytic approach for the study of poetic themes, the aesthetic approach to take into account the artistic aspect, and the statistical approach to address the issue of poetic meters and their repetition.

At the end of my research, I have arrived at several important results: The depiction of the Sultan had been a prominent, unambiguous theme in the works of poetry spoken during the reign of the Turkish state. Moreover, works of poetry during this period presented an honest depiction of the great Islamic battles and events, in which the Sultan had played a prominent role.

In conclusion, I recommend further study to be done on this topic focusing on the second period of this era, and for a comparative research to be conducted between the two periods, or between two different eras.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وبه أستعين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد المرسلين، وإمام المتقين محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى جميع عباد الله المؤمنين من الأولين والآخرين في مشارق الأرض ومغاربها، وبعد؛

فهذا البحث موضوعه " صورة السلطان في دولة الترك في الشعر العربي خلال الفترة 648هـ -

784هـ: دراسة موضوعية وفنية "، وذلك في مصر وبلاد الشام.

وقد دفعني إلى اختيار الموضوع، رغبتني الذاتية في الكتابة في موضوع يتصل بالشعر العربي في عصر الدولة التركيّة، إضافة إلى رغبتني في الوقوف على الدور الذي أدّاه سلاطين دولة الترك في إنقاذ المشرق الإسلامي من أكبر خطرين استعماريين، حيث تألقت أسماؤهم في سماء المجد والبطولة، وشرع الشعراء يتغنّون بانتصاراتهم، بالإضافة إلى الكشف عن الوجه الآخر لصورة السلطان التركي، فكان لا بدّ من الوقوف على تلك الأشعار ودراستها دراسة موضوعية وفنية.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنه يتطرّق لموضوع درس صورة السلطان التركيّ الإيجابية والسلبية:

دراسة موضوعية وفنية، حيث شملت هذه الدراسة السلاطين الأتراك خلال الفترة "648هـ -784هـ".

أمّا الدراسات السابقة لهذا الموضوع فقد تناولها من الباحثين المحدثين خالد يوسف إبراهيم في

كتابه " الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصره من ذوي السلطان" بيروت: دار النهضة العربية

ط1، 2000. وقد بحث فيه الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية في الدولة التركيّة في الباب الأول،

أمّا الباب الثاني: فقد تناول الشعر العربي أيام الدولة التركيّة ومن عاصره من ذوي السلطان وعرض

للنقد الأدبي والشعر والمظاهر الفنية، وتناول في الباب الثالث: الأغراض الشعرية التي تناولها الشعراء

في الدولة التركيّة، وأفادني في انتقاء بعض المعلومات عن الحياة العامة للدولة التركيّة، واختيار بعض

النماذج الشعرية التي تناولت صورة السلطان الإيجابية والسلبية. ومن الدراسات السابقة أيضاً "صورة

السلطان الناصر محمد بن قلاوون في أدب العصر المملوكي الأول" لمنال أبو بكر، وهي رسالة ماجستير غير منشورة، قُدمت في جامعة النجاح الوطنية بنابلس، سنة 2012، وبحث فيها الظروف السياسيّة والاجتماعية والثقافية في عهد السلطان محمد بن قلاوون في التمهيد، والصورة الإيجابية والسلبية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون في الفصل الأول والثاني، وتناولت الصورة الفنية في الفصل الثالث، وأفادتني في قسمة رسالتي حيث قُمت بتقسيمها وفق ما اتبعته منال أبو بكر في تقسيم رسالتها.

واعتمدت في بحثي هذا على المنهج التكامليّ، حيث اتبعت المنهج التاريخيّ في الحديث عن الحياة العامة في دولة التّرك، والمنهج التحليليّ في تحليل النصوص الشعريّة التي تناولتها في الدّراسة الموضوعيّة، والمنهج الجماليّ في الكشف عن جماليات النصوص، أمّا المنهج الإحصائيّ فقد قُمت بتوظيفه في الدّراسة الفنيّة.

قسّمت مادة هذا البحث في تمهيد وفصلين رئيسيين وخاتمة: أمّا التمهيد فقد تناولت فيه الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والفكريّة بشكل موجز، وفي الفصل الأوّل تناولت أولاً: الصورة الإيجابية للسلطان التركيّ، ثانياً: الصورة السلبية للسلطان التركيّ، وفي الفصل الثّاني تناولت الدّراسة الفنيّة، من حيث: اللغة، والأسلوب، والموسيقى الشعريّة، والصورة الشعريّة.

ومن الصعوبات التي واجهتني: أنّ الأشعار جاءت مبعثرة في كتب التاريخ والأدب، وقلة الدّراسات حول الموضوع، بالإضافة إلى كثرة الأعلام في عصر دولة التّرك، فمنهم من عُثر على ترجمته في كتب التراجم والأعلام، ومنهم من تعسرت ترجمته، وكان ذلك قليلاً.

أمّا المصادر والمراجع التي أسهمت إسهاماً كبيراً في بناء هذا البحث، فهي عديدة، منها: ديوان الشعراء، وأهمها: ديوان الجزائر (ت679هـ). ديوان ابن الوردی (ت749هـ)، وديوان صفي الدّين الحلبي (ت752هـ)، وديوان ابن نباتة (ت768هـ)، وديوان ابن أبي حجلة (ت776هـ).

أما كتب التراجم والتاريخ، فمن أهمها: "الوافي بالوفيات" للصفدي (ت 764هـ)، و"فوات الوفيات" للكُتبي (ت 764هـ)، و"السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي (ت 845هـ)، و"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" للعسقلاني (ت 852هـ)، و"عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" للعيني (ت 855هـ)، و"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي (ت 877هـ).

وأخيرًا، نسأل الله تعالى أن يزيد من نفع الدارسين مما توصلنا إليه من معلومات

التّمهيد

الحياة العامة في دولة التّرك

أولاً: الحياة السياسيّة

ثانياً: الحياة الاجتماعيّة

ثالثاً: الحياة الاقتصاديّة

رابعاً: الحياة الثقافيّة

أولاً: الحياة السياسيّة:

تعود الصلة بين العرب والتّرك إلى أيام الدّولة العباسيّة، فهم أوّل من استعملوا العنصر التركي في دولتهم ، فكانوا يستلمون المناصب العليا في الدّولة، سواء أكان ذلك في الجيش أو القصور أو الإدارة، وأصبح لهم أثر كبير في الحياة السياسيّة الاجتماعيّة، وكان بعضهم قادة كبار في الجيش الإسلاميّ، فعينهم الخلفاء أمراء في ولايات الدّولة، ومنهم أحمد بن طولون تركي الأصل الذي تمكّن من إقامة إمارة في مصر والشام حيث قام بدعم سلطته بجيش من الأتراك من بني جنسه، وقد بلغ تعداد هذا الجيش ما يزيد على أربعة وعشرين ألف غلام تركي¹.

وإزداد الاعتماد على الأتراك بعد وفاة صلاح الدّين الأيوبيّ عندما تنازع ورثته من الأمراء على السلطنة، فاتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم، فأكثرُوا السبي منهم ودربوهم على أساليب القتال ليتخذوا منهم حراساً وجنوداً، فأثبتوا تفوقهم الحربيّ في كل الميادين، ما أدّى إلى زيادة نفوذهم في مختلف الإمارات والدول الإسلاميّة، فأضحى لهم تأثير قويّ في مجرى الأحداث التي تعرضت لها المنطقة².

ثم جاء السلطان نجم الدّين الأيوبيّ³، الذي زاد اعتماده عليهم، واعتنى بهم ودربهم على القتال فزادت قوتهم⁴.

(1) ينظر: فايد عاشور، العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول، ص11، ينظر: محمّد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص16-19.

(2) ينظر: محمّد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص24.

(3) هو الملك الصالح نجم الدّين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدّين محمّد بن الملك العادل أبي بكر محمّد بن أيوب، كان ملكاً مهيباً جباراً ذا سطوة وجلالة، كان حسن المحاوره، توفي سنة (647هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 35/10؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 319/6؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة، 16/2.

(4) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأوّل، 13/1.

وظهرت دولة التُّرك بوفاة الملك الصالح نجم الدِّين الأيوبيّ سنة (647هـ) في الوقت الذي تعرضت فيه البلاد لحملة صليبية قادها ملك فرنسا لويس التاسع، حيث وصل إلى مصر واستولى على دمياط¹. وفي هذه الأثناء ظهرت زوجة السلطان شجرة الدر² التي كتمت خبر وفاة زوجها، وأرسلت إلى تورانشاه بن الصالح أيوب³ تستدعيه للقدوم إلى مصر على عجل⁴، على حين كانت هي تدير أمور المملكة بمساندة قادة الجيش التركيّ، وعلى الرغم من حرصها على إخفاء نبأ وفاة زوجها إلا أنّ الخبر قد تسرّب إلى لويس التاسع، فانتهاز الصليبيون الفرصة، وتوجّهوا إلى المنصورة فدخلوها، وكان للجيش التركيّ دور بارز في إنقاذ الموقف، فقد أبلوا بلاءً حسنًا في موقعة المنصورة، التي هزموا فيها الفرنجة⁵.

في تلك الأثناء وصل تورانشاه، فتولّى السلطنة، وكان من المفروض أن يقدر ثمن النصر الذي حققه الأتراك من أجل الحفاظ على نظام الحكم، إلاّ أنّه اختلف معهم فأبعدهم عن المناصب الكبرى وأمر باعتقالهم، اعتقادًا منه أنّهم يراحمونه الحكم، فاتفق الأتراك على التّخلص منه وقتله، وظلّت شجرة الدر ملكة على البلاد، واختاروا عز الدِّين أيبك⁶ أن يكون قائدًا للجيش الذي ما لبث أن صار لها زوجًا ثم ملكًا⁷، فبوفاة تورانشاه انتهت الدولة الأيوبيّة، وبدأت دولة التُّرك عام (648هـ) على يد عز الدِّين أيبك.

(1) ينظر: سعيد عاشور، العصر المماليكيّ في مصر والشام، ص7.

(2) هي شجرة الدر بنت عبد الله، جارية الملك نجم الدِّين أيوب، وزوجته، وأم ولده خليل، وكانت من محاسن الدّهر حزمًا، وعقلًا، ودينًا، وجمالًا، نُقش اسمها على الدينار والدّرهم، توفيت سنة (656هـ)، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 13/199؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/332؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة، 21/2؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 2/36، 37.

(3) هو السلطان الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدِّين أيوب بن الكامل ناصر الدِّين محمّد، سلطان الدِّيار المصريّة الأيوبي الكرديّ، آخر ملوك بني أيوب، توفي سنة (648هـ)، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 10/274؛ الكتبي، فوات الوفيات، 1/263؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/322؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة، 2/19.

(4) ينظر: سعيد عاشور، العصر المماليكيّ في مصر والشام، ص8.

(5) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلّد الأوّل، 1/14.

(6) هو أيبك بن عبد الله الصالحيّ الملك المعزّ عزّ الدِّين التركمانيّ، أول ملوك الدِّيار المصريّة، وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدِّين أيوب، كان معروفًا بالسداد، وعنده كرم سعة وصدر ولين جانب، مدة حكمه سبع سنوات قُتل سنة (655هـ)، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 9/263؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 13/178؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/19-3.

(7) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكيّ في مصر والشام، ص10، 9.

لقد أثار تولية السلطان أيك غضب الملوك الأيوبيين، فأرادوا الزحف إلى مصر من أجل القضاء على دولة التّرك الناشئة ودار صراع بين الفريقين انتهى بانتصار المعز أيك بعدما تحالف معه الجنود التّرك أمام الخطر الأيوبي¹.

حرص الخليفة العباسيّ المستعصم على توحيد صفوف المسلمين لمواجهة الخطر المغوليّ، فأرسل رسولاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز أيك، وأن يتفقا على حرب التتار، فتمّ عقد الصلح بينهما والذي اعترف فيه الأيوبيون بشرعية سلطنة الأتراك في مصر².

وبعد سقوط الخلافة العباسية توالى الأبناء عن وصول التتار بقيادة هلاكو إلى بلاد الشام، فعمّ القلق والاضطراب أرجاء مصر عندما أحسوا باقتراب الخطر منهم، وفي ظلّ هذه الظروف انتهز قطز³ الفرصة ليتولى عرش السلطنة، فعزل المنصور علي بن أيك⁴، وأعلن نفسه سلطاناً سنة (657هـ)⁵.

وفي السنة التالية استولى التتار على بلاد الشام، وكان هلاكو قد وجه إنذاراً للسلطان قطز يطلب منه الاستسلام، فلم يستجب الأخير لذلك وقرّر المقاومة، وفي هذه الأثناء توحد الأتراك جميعاً للوقوف في وجه الخطر الذي هدّد بلاد الإسلام، فخرج السلطان قطز على رأس جيوشه متوجّهاً إلى الشام

(1) ينظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، 23/7.

(2) ينظر: محمد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص57.

(3) هو الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، الثالث من ملوك التّرك بالديار المصرية، وهو أول من ملك البلاد الشامية من ملوك التّرك، كان بطلاً، شجاعاً، حازماً، كسر التتار كسرة جبر بها الإسلام، مدة حكمه سنة واحدة، توفي سنة (658هـ)، ينظر: العيني، عقد الجمان، 220/1، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 67/7 - 85؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة، 30/2، ابن العماد، شذرات الذهب، 507/7.

(4) هو الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيك التركماني الصالحي، وهو ثاني ملوك الديار المصرية من التّرك، تسلطن وعمره خمس عشرة سنة، وكانت مدة سلطنته في الديار المصرية سنتين، توفي سنة (655هـ)، ينظر: المقرئ، السلوك، 495/1؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 37/7-66؛ ابن ياس، بدائع الزهور، 296/1/1.

(5) ينظر: محمد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص60.

والتقى بالجيش المغولي في عين جالوت، وقد أظهر الأتراك شجاعة كبيرة في المعركة، فانتصروا فيها على المغول وألحقوا بهم الهزيمة¹.

وكانت معركة عين جالوت من الوقائع الهامة والفاصلة في التاريخ، حيث سيطر الأتراك بعد المعركة على بلاد الشام كلها حتى اجتازوا نهر الفرات شرقاً، وأنقذوا بلاد الإسلام والمسلمين من أشد ما تعرضوا له من أخطار، ووجدوا الشام ومصر، وتعرض فيها المغول للهزيمة الكاسحة، فكسر الأتراك قاعدة: "أن جيش المغول لا يهزم" وهذا الانتصار أبرز نجمهم، فهم القوة الوحيدة التي استطاعت هزيمة التتار، وبذلك أصبحت سلطنة الأتراك القوة الأساسية في البلاد الإسلامية².

ويعدّ المؤرخون السلطان بيبرس³ هو المؤسس الحقيقي للدولة، ويعود ذلك للإنجازات والأعمال العظيمة التي حققها في عهده⁴.

حرص السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري بعد وصوله إلى الحكم على أن يضع لنفسه سياسة واسعة من أجل تثبيت أركان دولته، وتصدى لأخطار التتار والصليبيين الخارجية عن بلاد الشام، واستطاع أن يحقق الأمن في داخل البلاد، وقضى على الثورات الداخلية⁵.

ومن مخططاته السياسية بعيدة الأهداف أنه عقد تحالفات مع الدولة البيزنطية، ليضمن عدم حصول الصليبيين على أي دعم أو مساندة منهم، وعمل على إحياء الخلافة العباسية في مصر لتكون

(1) ينظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، 29/30/7.

(2) ينظر: محمد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص 80-82.

(3) هو ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالح النجمي التركي، الملك القاهر ثم الظاهر، سلطان الديار المصرية والشامية، الرابع من ملوك الترك، كان شجاعاً، مقداماً، مجاهداً، غزياً، توفي سنة (676هـ)، ينظر: العيني، عقد الجمان، 1/261؛ محيي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 46، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 86/7.

(4) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، 26/1.

(5) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 41.

بمناخ دعامة لحكم الأتراك في مصر والشام ، وسعى للتحالف مع مغول القفجاق¹ الذين اعتقوا الإسلام ليكونوا له ستاراً ضد التتار في فارس².

توجّه السلطان بيبرس إلى بلاد الشام، للقضاء على معاقل الصليبيين فيها، ففي سنة (663هـ) فتح قيسارية³، ثم أرسوف⁴، والكرك، وفي سنة (664هـ) استولى على صفد⁵، ثم أغار جيشه على بلد سيس⁶ فدخلوها ، وواصل طريقه في سنة (666هـ) حتى استولى على يافا وعكا وصور وواصل حملاته مروراً بالشقيف⁷ وطرابلس حتى أنطاكية⁸.

وأخذ بلاداً كثيرة من التتار منها البيرة⁹، والرحبة¹⁰، وغيرها، فاتسعت مملكته من الفرات إلى أقصى بلاد النوبة¹¹.

وبهذه الانتصارات يكون الأتراك قد قضوا على أطماع التتار في بلاد المشرق الإسلاميّ، وأنهوا الوجود الصليبيّ، وكان للظاهر بيبرس الدور الكبير في ذلك.

وقد قام سلاطين دولة التّرك بعد ذلك بالاستيلاء على الإمارات الصليبيّة المتبقية في بلاد الشام، حتى انتهى الوجود الصليبيّ في المشرق الإسلاميّ، ففي سنة (684هـ) استولى السلطان

(1) هي البلاد الواقعة بين نهر أثنس والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، ينظر: فايد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص206 .

(2) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص42.

(3) هي بلد على ساحل بحر الشّام، تُعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبريا ثلاثة أيّام، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 4/421.

(4) مدينة على ساحل بحر الشام، بين قيسارية ويافا، ينظر: المصدر نفسه، 1/151.

(5) ينظر: بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية في الدولة التركيّة، ص57.

(6) سيس أو سيسيّة: بلد بين أنطاكية وطرسوس من أهم ثغور بلاد الشام، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 3/297.

(7) شقيف أو شقيف أرنون: وتعني الكهف، وهي قلعة حصينة قرب بانياس من أرض دمشق، ينظر: المصدر نفسه، 3/356.

(8) ينظر: بيبرس المنصور، التحفة الملوكية في الدولة التركيّة، ص61، 62.

(9) هي قلعة حصينة بين حلب والثغور الروميّة، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 1/526.

(10) قرية من قرى دمشق، المصدر نفسه، 3/33.

(11) ينظر: محمود العينيّ، عقد الجمان، 2/176، 177، النوبة: بلاد واسعة عريضة جنوبي مصر، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 5/309.

المنصور قلاوون الألفي¹ على حصن المرقب وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة² ، وفي سنة (688هـ) توجه السلطان الألفي إلى طرابلس في ربيع الأول وفتحها³.
وأما السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون⁴، فتح عكا في سنة (690هـ)، وتوالت الفتوحات بعدها، حيث فتحت حصون عدّة في بلاد الشام كان قد استولى عليها الصليبيون، وهكذا تمكن سلاطين دولة التّرك من طرد الفرنجة من بلاد الشام وتطهيرها من المغول.

(1) هو الملك المنصور سيف الدّين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحيّ النجميّ، ملك الديار المصريّة، السابع من ملوك التّرك ، كان كريماً، حليماً، شجاعاً، عادلاً، توفي سنة (689هـ)، ينظر: العيني، عقد الجمان، 2/225؛ ابن حبيب، تذكرة النّبیه، 1/48؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/248.
(2) المرقب: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 5/108؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/269.
(3) ينظر: محمود العيني، عقد الجمان، 2/380 .
(4) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدّين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدّين قلاوون الألفي الصالحيّ النجميّ، جلس على تخت الملك في سنة (689هـ) يوم وفاة أبيه، كان شجاعاً، مقداماً، مهيباً، وكان ضخماً، سميناً، بديع الجمال، قُتل سنة (693هـ)، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 13/399؛ الكتبي، فوات الوفيات، 1/406؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/3.

سلاطين دولة التّرك من (648هـ - 784هـ)

اسم السلطان	فترة الحكم	المدة التي حكمها	سبب الوفاة
1. عز الدّين أيبك التّركمانيّ	648هـ - 655هـ	7 سنوات	قتل
2. نور الدّين علي بن المعز	655هـ - 657هـ	2 سنة	خُلع
3. المظفر سيف الدّين قطز	657هـ - 658هـ	1 سنة	قُتل
4. الظاهر ركن الدّين بيبرس	658هـ - 676هـ	18 سنة	وفاة
5. السعيد محمّد بركة خان	676هـ - 678هـ	2 سنة	خُلع
6. العادل سيف الدّين سلامش	678هـ - 678هـ	أقل من سنة	خُلع
7. المنصور سيف الدّين قلاوون	678هـ - 689هـ	11 سنة	وفاة
8. الأشرف صلاح الدّين خليل	689هـ - 693هـ	4 سنوات	قُتل
9. الناصر محمّد بن قلاوون	693هـ - 694هـ	سنة	خُلع
10. العادل كتبغا المنصوريّ	694هـ - 696هـ	2 سنة	خُلع
11. المنصور حسام الدّين لاجين	696هـ - 698هـ	2 سنة	قُتل
12. العودة الأولى للناصر محمّد	698هـ - 708هـ	10 سنوات	اعتزال
13. المظفر ركن الدّين بيبرس	708هـ - 709هـ	سنة	قُتل
14. العودة الثانية للناصر محمّد	609هـ - 741هـ	32 سنة	وفاة
15. المنصور سيف الدّين أبو بكر	741هـ - 742هـ	أقل من سنة	خُلع
16. الأشرف علاء الدّين كجك	742هـ - 742هـ	أقل من سنة	خُلع
17. الناصر شهاب الدّين أحمد	742هـ - 743هـ	أقل من سنة	خُلع
18. الصالح علاء الدّين اسماعيل	743هـ - 746هـ	3 سنوات	وفاة
19. الكامل شعبان بن الناصر محمّد	746هـ - 747هـ	أقل من سنة	قُتل
20. المظفر حاجي بن الناصر محمّد	747هـ - 748هـ	أقل من سنة	قُتل
21. الناصر حسن بن الناصر محمّد	748هـ - 752هـ	4 سنوات	خُلع
22. الصالح صلاح الدّين بن الناصر محمّد	752هـ - 755هـ	3 سنوات	خُلع
23. عودة الناصر حسن بن قلاوون	755هـ - 762هـ	7 سنوات	قُتل
24. المنصور محمّد بن المظفر حاجي	762هـ - 764هـ	2 سنة	خُلع
25. الأشرف شعبان بن حسين	764هـ - 778هـ	14 سنة	قُتل
26. المنصور علي بن شعبان	778هـ - 783هـ	5 سنوات	وفاة
27. الصالح أمير حاج بن شعبان	783هـ - 784هـ	سنة	خُلع ¹

(1) ينظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ص 35-36.

ثانياً: الحياة الاجتماعية

يُقسم المقريري المجتمع في دولة التُّرك إلى سبع طبقات قال: " اعلم أنّ النَّاس بِإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السُّوقَة، القسم الرابع أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السُّؤال الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم"¹.

والأتراك هم الطبقة الحاكمة في البلاد بصفتهم طبقة عسكريّة قويّة، فكان لهم دور كبير في الفتوحات والغزوات وإنقاذ البلاد من سيطرة الأعداء²، وفازت هذه الطبقة بميزات لم تحصل عليها الطبقات الأخرى، فاعتبروا الأهالي أقلّ منهم درجة، فلم يمتزجوا بهم، وحرموهم من المشاركة في الحياة الحربيّة³.

وتمتع الأمراء بأموال طائلة وثراء فاحش، فيملك الأمير إقطاعاً من الأرض يمنحها له السلطان، بالإضافة إلى الممتلكات الأخرى، كالعقارات والدكاكين التي توفر له ثروة طائلة من المال⁴.

وفي الدولة التُّركيّة أضحت مصر وبلاد الشام مركزاً للتجارة العالميّة، وبوابة العبور إلى أوروبا، فأصبح الأتراك يتمتعون بثروة واسعة وثراء فاحش، وظهر أثر هذه الثروة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعيّة في اللباس والطعام والاحتفالات، وكذلك في عمارة القصور وزخرفتها⁵، وتفننوا في قضاء

(1) المقريري، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، ص147.

(2) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، 67/1.

(3) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص320.

(4) ينظر: محمّد، سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص55.

(5) ينظر: سعيد، عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص9، 10.

أوقات اللهو واللعب، وأسرفوا في مناسباتهم وبخاصة في حفلات الزفاف، وكانوا يقبلون الرشوة والهدية من الناس¹.

واشتهرت الحياة الاجتماعية في المدن في عصر الدولة التركية بالاحتفال بالأعياد الدينية والسياسية والاجتماعية، فمن الأعياد الدينية: عيد رأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، والمولد النبوي، كان الناس يتبادلون فيها التهاني، ويظهرون السرور والبهجة، فتوزع الصدقات على اليتامى والمساكين، وتقام الولائم، وتعد الحلوى والمأكولات الشهية، وتزار القبور².

وفي شهر رمضان كان الأتراك يحتفلون برؤية الهلال وفي نهاية الشهر كان يستعد الناس للاحتفال بعيد الفطر فيصنعون الحلوى ويجهزون الملابس الجديدة ابتهاجاً بقدم العيد³.

وأما الاحتفالات السياسية والاجتماعية في عصر الدولة التركية فكانت عديدة، منها: الاحتفال بتولية سلطان جديد، أو عودته من السفر، أو شفائه من المرض، أو رجوعه منتصراً من ساحة الحرب حيث كان يخرج السلطان في موكب حافل، فيستقبله الناس بحفاوة وسط قرع الطبول والزغاريد، ومن الاحتفالات التي حرص المصريون على الاحتفاء بها عيد الوفاء بالنيل⁴.

وقد عانى الناس في هذا العصر من ظلم وجور بعض السلاطين، فكانت تُفرض عليهم الضرائب دون مراعاة للمنفعة للعامة، إذ فُرضت على بعض الناس دون غيرهم، وكانت مغنماً للسلطان وأعوانه⁵، ومن أشكال الظلم التي مورست على الناس أيضاً، سوء معاملتهم واضطهادهم وتسخيرهم للعمل بأجور زهيدة⁶، ولم يتوقف الأمر على ذلك بل ذاقوا الفقر والحرمان بسبب القحط والغلاء،

(1) ينظر: محمّد، سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص54، 53.

(2) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 332، 333.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص201.

(4) ينظر: سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص335.

(5) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 1/290.

(6) ينظر: المرجع نفسه، 1/291.

وانتشار الطاعون بين الناس، وعانوا من خطر الزلازل التي حدثت في هذا العصر¹، هذا بالإضافة إلى ثورات العريان الذين كانوا مصدرًا للفتن والسلب والنهب فسببوا الكثير من المتاعب والفوضى² ومن المفاصد التي كانت سائدة في المجتمع تفشي ظاهرة السرقة وازديادها، فانتشر اللصوص وعاثوا في الأرض خرابًا وفسادًا³.

ثالثًا: الحياة الاقتصادية

من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدولة التركيّة في دخلها:

أولاً: الزراعة

من أهم المحاصيل الزراعيّة التي قام الفلاحون بزراعتها : القمح، وقصب السكر، وأنواع من الخضروات والفواكه بالإضافة إلى الزهور والرياحين⁴. ووزعت الأراضي الزراعيّة على السلاطين والأمراء والجند حيث قسمت مصر إلى أربعة وعشرين قيراطًا، منها أربعة قرايط للسلطان، وعشرة قرايط للأمراء، وعشرة قرايط للجند⁵، ويبقى صاحب الإقطاع مستفيداً منه ما دام حيًّا، ويعمل الفلاحون عنده أجراً في زراعة الأرض ولا يحق لهم تملك الأرض أو تأجيرها، ودُكر أنّ الإقطاع لا يورث، ففي حال وفاة صاحب الإقطاع تُرد الأرض للسلطان لإعادة توزيعها، فيهبها لمن يشاء⁶.

وقد عصفت بالبلاد في بعض السنوات حوادث مؤلمة منها: القحط، وقلة المطر، وشح الماء، وهذا بدوره أثر على الزراعة فقلت المحاصيل، وماتت الحيوانات وارتفعت الأسعار⁷.

(1) ينظر : محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، 316/1.

(2) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص326.

(3) ينظر: محمّد، سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص87.

(4) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص285.

(5) ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج1/ق1، ص397.

(6) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 275/1.

(7) ينظر: المقرئزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص39.

ثانياً: الصناعة

إهتم الأتراك بالصناعات الحربية كصناعة السفن والمراكب، نظراً لكون الدولة التُّركيَّة دولة حربيَّة من الدرجة الأولى، فقد اهتم السلطان بيبرس في صناعة السفن، وكذلك السلطان خليل قلاوون قام بإنشاء أسطول يتكون من ستين مركباً استعرضها في جزيرة الروضة¹.

وأما الصناعات المدنيَّة فمنها صناعة المنسوجات التي صنعت من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، وكذلك صناعة المعادن التي تتمثل في صناعة الثريات والأواني المنزليَّة، والأباريق، بالإضافة إلى صناعة الزجاج والمصنوعات الخشبيَّة والجلديَّة والغذائيَّة².

وكان للصناعة في أيام دولة التُّرك دورٌ في تنشيط التجارة الخارجيَّة وجذب التجار الأجانب، حيث كانت مصر وبلاد الشام حلقة وصل لتجارة المشرق والمغرب وتبادل السلع، فجذبت موانئ مصر تجار بلاد البحر الأبيض المتوسط، وتجار الجمهوريات الإيطاليَّة³، وعاشت بعض الجاليات الفرنسيَّة التي اشتغلت في التجارة في مصر، وكان لهم علاقات خاصة بكبار أمراء التُّرك ورجال الدولة⁴.

عمل السلطان المنصور قلاوون على تنشيط التجارة، ووطد العلاقات مع القوى الإسلاميَّة الواقعة في حوض البحر الأحمر، ومن ذلك أنه أرسل لملك اليمن يتودد إليه ليحالفه من أجل أن يضمن طرقاً تجاريَّة آمنة⁵، وحرص السلطان قلاوون ومن تبعه من سلاطين دولة التُّرك على المحافظة على القوافل

(1) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 290، 289.

جزيرة الروضة: هي جزيرة بين مصر ومدينة الجيزة، بنى فيها الملك الصالح نجم أيوب القلعة الصالحية، ينظر: المقرئ، المواظ والاعتبار، 177/2.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 291- 295.

(3) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص 53.

(4) ينظر: محمّد، سالم، الأدب في العصر المملوكي، ص 93.

(5) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص 298.

التجارية ومنعوا الاعتداء عليها، وأرسل السلطان قلاوون إلى نوابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجار¹.

ثالثاً: التّجارة

لقد أسهمت الصناعة بتمويل خزائن الدّولة، وجذب التّجار الأجانب، وتنشيط التجارة الخارجيّة، فشهدت سلطنة الدّولة التّركيّة حركة تجاريّة واسعة².

1- التّجارة الخارجيّة:

كانت طريق البحر الأحمر وموانئ مصر من الطرق الرئيسيّة بين الشرق والغرب، وحرص السلاطين في دولة التّرك على تأمين طرق التّجارة، فالسلطان قلاوون ومن خلفه من السلاطين تصدّوا لقبائل الأعراب الذين كانوا يعتدون على قوافل التّجارة بين موانئ مصر والبحر الأحمر، وأمر نوابه بمعاملة التّجار معاملة حسنة³.

وشجع السلاطين تجار الشرق الأقصى على جلب بضائعهم إلى مصر، ورحبوا بالتّجار الأوربيين، الذين يأتون إلى الإسكندرية ودمياط لشراء البضائع وهذا أكثر من عدد هؤلاء التّجار⁴. وأقام السلاطين الأتراك علاقات تجاريّة مشتركة مع بعض الإمارات الأوروبيّة، حيث كان يتم توريد المنتجات الصناعيّة والزراعيّة من مصر، وبالمقابل كانوا يستوردون احتياجاتهم من حديد وخشب⁵.

2- التّجارة الداخليّة:

شهدت التّجارة الداخليّة في عصر الدولة التّركيّة نشاطاً واسعاً، واشتهرت القاهرة بأسواقها وكان كل سوق منها يختص بنوع من البضائع، فهناك سوق الشماعين، وسوق النحاسين وغيرهما، وكذلك المواد

(1) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، 299.

(2) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص 53.

(3) ينظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص 299.

(4) المرجع نفسه، ص 300.

(5) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص 53.

الغذائيّة كان لها أسواق خاصة مثل: سوق باب الفتوح، وسوق بين القصرين، وهذا منع التّجار من رفع الأسعار؛ لأنّ مَنْ لا تعجبه سلعة، أو ثمنها يستطيع أن ينتقل إلى تاجر آخر بسهولة¹.

بالإجمال عاش الأتراك حياة الترف والبذخ، فقد جمعوا ثروات تمتّعوا بها في السّلم، وصدّوا بها سهام الأسر والموت في الحرب.

ولم يبق الأمر على حاله، فقد تعرضت مصر وبلاد الشام إلى تدهور اقتصادي شهدته البلاد على فترات، وذلك بسبب القحط والسيول والزلازل، وظاهرة تزييف النّقد حيث تسبب ذلك في صعوبة الحصول على السلع بسبب ارتفاع أسعارها، وإغلاق الأسواق، واحتكار الأمراء للقمح، ويمتنعون عن بيعه وكان الغلاء من أكثر الأسباب التي ساهمت في تدهور الاقتصاد وكساده².

رابعًا: الحياة الفكرية

أصبحت مصر في عصر الدّولة التّركية مركزًا للنشاط العلميّ، فقد احتضنت العلماء وطلبة العلم، وكثُر فيها الأدباء والشعراء، وشيّد سلاطينها العديد من الصروح العلميّة، وكان ذلك عند إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد³، يقول السيوطي "واعلم أنّ مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وصارت محلّ سكن العلماء، ومحطّ رجال الفضلاء"⁴.

وكان السلاطين الأتراك يعظمون أهل العلم، ويستشيرونهم في أمور الدّولة، ويحبّون العلم ويشجعون عليه، فالملك الظاهر بيبرس " كان يُقرب أرباب الكمال من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلًا زائدًا"⁵. والمدارس التي أنشأها السلاطين الأتراك تدلّ على مدى اهتمامهم بالعلم وشغفهم

(1) ينظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص308، 309.

(2) ينظر: محمّد طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص297.

(3) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص341.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة، 2/94.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/162.

به، فمن المدارس التي بنوها المدرسة الظاهرية¹ نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس، والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد قلاوون² واهتموا ببناء المساجد والخوانق والزوايا والأربطة، وكان بجانب هذه الدور التعليمية المكاتب الصغيرة التي تهتم في تعليم الصبية القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ليلتحقوا بعدها بالمدارس التي تمثل المعاهد العليا في عهد الدولة التركية³.

وقد اهتم السلاطين بجمع الكتب وإنشاء المكتبات حيث وجدت في قلعة الجبل خزانة كتب كبيرة، وأعدوا مكتبات في المدارس والجوامع تشمل أعدادًا ضخمة من المراجع في شتى العلوم⁴، وكان بعض السلاطين لديهم شغف باقتناء الكتب كالسلطان الناصر حسن قلاوون⁵.

وكنّرت المؤلفات نتيجة النشاط العلمي فبلغت الآلاف، ومُنّنت بها دور الكتب المصرية، وتتنوع فمنها ما كان في التاريخ والأدب والعلوم الدينية وفنون العربية والعلوم الكونية وغيرها⁶.

1- كتب التاريخ:

لقد اهتم علماء هذا العصر بالتاريخ بصورة متنوعة، حتى أصبحت هذه المؤلفات التاريخية ذات قيمة عظيمة خدمت تاريخ الإنسانية جمعاء.

ومن المؤلفات التاريخية المشهورة:

(1) هي المدرسة التي شرع في بنائها الظاهر بيبرس البندقداري سنة (661هـ)، وتمت سنة (662هـ)، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 2/264.

(2) هو ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح النجمي، وهو التاسع من ملوك الترك بالديار المصرية، كان عمره تسع سنوات عندما تولى السلطنة الأولى، تولاها في سنة (693) بعد مقتل أخيه لأشرف خليل، وعاد للسلطنة مرة ثانية وثالثة، توفي سنة (741هـ)، ينظر: العيني، عقد الجمان، 3/222؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، 1/169؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/35.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 2/27.

(4) ينظر: سعيد، عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص345.

(5) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 2/67.

الناصر حسن: هو الناصر بدر الدين حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون، وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك، والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، قُتل سنة (762هـ) كان مفرط الذكاء، عاقلًا، شهيمًا، ينظر: ابن حبيب، تذكرة النبيه، 3/102؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/38. ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، 10/148-184.

(6) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 2/91.

أ. كتب تراجم الأعلام:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ومؤلفه شمس الدين ابن خلكان (ت681هـ)¹.
- فوات الوفيات: ومؤلفه محمد بن شاکر الکتبي (ت 764هـ).
- الوافي بالوفيات: ومؤلفه صلاح الدين ابن أبيک الصفديّ (ت764هـ)².
- درة الأسلاك في دولة الأتراك: مؤلفه بدر الدين ابن حبيب الحلبيّ (ت779هـ)³.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر (ت852هـ)⁴.

ب. كتب السيرة النبويّة:

وهي الكتب التي تناولت سيرة الرسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحتوي على كثير من أقواله وأفعاله ومواقفه، وما كان له من وقائع وغزوات.

ومن مؤلفات السيرة النبويّة⁵:

- نور العيون في تلخيص سيرة الأمين والمأمون: مؤلفه فتح الدين اليعمريّ الأندلسيّ المشهور بابن سيّد الناس (ت734هـ).
- مختصر السيرة النبويّة، واضعه عز الدين ابن جماعة الكنانيّ (ت767هـ).
- المقتفى في ذكر فضائل المصطفى: لابن حبيب الحلبيّ الدمشقيّ (ت779هـ).
- النجم الثاقب في أشرف المناقب: مؤلفه ابن حبيب الحلبيّ الدمشقيّ (ت779هـ).

(1) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 96/2.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 97/2.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 99/2.

(4) ينظر: المرجع نفسه، 98/2.

(5) ينظر: المرجع نفسه، 106/2.

ج - كتب تاريخ مصر والشام:

لقد كتب مؤلفو هذا العصر عن تاريخ مصر والقاهرة، وما جرى فيهما من أحداث، ومن حكمها من سلاطين، ومن عاش فيهما من أعلام ومشاهير .
ومن هذه المؤلفات:

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: مؤلفه شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت 665هـ)¹.
- جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور: مؤلفه إبراهيم بن وصيف شاه المصري المتوفى في أواخر القرن السابع، وهو موجز في أخبار مصر إلى سنة (688هـ)².
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: مؤلفه أبو المحاسن جمال الدين بن تغري بردي (ت 874هـ). ويعتبر من أفضل الكتب التي ألفت في تاريخ مصر³.
- التحفة الملوكية في الدولة التركية: مؤلفه بيبرس المنصوري، ركن الدين الدوادر (ت 725هـ)

د - تاريخ الخطط والآثار:

- وهي المؤلفات التي تحدثت عن البلاد والمدن والمواضع، وأكثر ما اهتم به مؤلفو هذا العصر هو وصف خطط مصر والقاهرة، ومن أشهر هذه المؤلفات وأكثرها شيوعاً:
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والمعروف "بالخطط المقرية"⁴: مؤلفه تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرزي (ت 845هـ)⁵.

(1) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 623/3، 624.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 864/3.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 109/2.

(4) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 846/3.

(5) ينظر: المرجع نفسه، 844/3.

2- المؤلفات الدينية:

كان من الطبيعي أن تنشط روح التأليف في الأمور الدينية، وذلك بسبب إهتمام السلاطين الأتراك

بعلماء الدين وتشجيعهم على التأليف¹، فمن هذه المؤلفات:

أ . مؤلفات الأصول والفقه، منها:

- شرح الجامع الكبير: لعلاء الدين علي الفارسي المصري (ت731هـ)².

- كتاب الكبائر: ألفه شمس الدين ابن القيم (ت 751هـ)³.

- جمع الجوامع ومنع الموانع: مؤلفه تاج الدين السبكي (ت 771هـ)⁴.

ب - كتب تفسير القرآن الكريم:

لقد عُني علماء هذا العصر بتفسير القرآن الكريم، فمنهم من أطلال الشرح ومنهم من اختصر، ومنهم

من مزج التفسير بالحديث وشرحه، ومن مؤلفاتهم⁵:

- أمثال القرآن: لشمس الدين بن قيم الجوزية (ت 751هـ).

- تفسير القرآن: لأبي الفداء اسماعيل بن كثير (ت 774هـ).

- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ).

ج - كتب الحديث:

يعتبر عصر دولة الترك من العصور الذهبية، في تاريخ الحديث وشرحه ونقده، حيث كثر فيه

الحُفاظ، وعنوا بالرواية، ومن كتب الحديث⁶:

(1) ينظر: محمود سليم، عصر السلاطين المماليك، المجلد الثالث، 126/2.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 135/2.

(3) ينظر: المرجع نفسه، 138/2.

(4) ينظر: المرجع نفسه، 132/2.

(5) ينظر: المرجع نفسه، 141، 142/2.

(6) ينظر: المرجع نفسه، 144/2، 145.

- شرح الترمذي: لفتح الدين ابن سيد الناس، (ت 734هـ).
- شرح البخاري: مؤلفه القطب الحلبي أبو علي بن عبد النور بن منير الحنفي، (ت 735هـ).
- شرح مسلم: لعيسى بن مسعود أبي الروح الزواوي، (ت 743هـ).

3- مؤلفات العربية:

لقد نبغ علماء عظام في عصر دولة الترك برعوا في فنون العربية، حيث تعتبر العربية من أهم الأدوات لفهم الدين، من أهم تلك المؤلفات:

أ. كتب النحو والصرف¹:

- شرح التسهيل: لشهاب الدين السمين، أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي (756هـ).
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب: لجمال الدين بن هشام المصري، (ت 761هـ).
- ألفية ابن مالك: لجمال الدين بن مالك الأندلسي، (ت 672هـ).

ب. بقية فنون العربية:

- لسان العرب: لابن منظور (ت 711هـ).
- المصباح المنير: لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (770هـ)².
- كتاب العروض: لابن مالك النحوي الأندلسي (672هـ)³.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لبهاء الدين أبي حامد السبكي (773هـ)⁴.

(1) ينظر: محمود سليم، عصر السلاطين المماليك، المجلد الثالث، 154/2.

(2) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 806/3.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر السلاطين المماليك، المجلد الثالث، 157/2.

(4) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 807/3، 808.

4- العلوم الكونية:

وتشمل التقويم، والسياسة، والاجتماع، والطب، والهندسة، وعلم الحيوان، والنبات، والرياضيات، والمنطق، والفلك، والنجوم، والفلسفة.

فمن مؤلفات العلوم الكونية¹:

- مطالع الأنوار: لسراج الدين أبو التثاء الأرموي (ت 682هـ)، وهو في الحكمة والمنطق.
- المختار من الأغذية: مؤلفه علاء الدين بن النفيس (ت 696هـ) في الطب والنبات.
- كتاب السياسة في علم الفراسة: مؤلفه شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي (ت 727هـ).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة (ت 665هـ).

(1) ينظر: محمود سليم، عصر السلاطين المماليك، المجلد الثالث، 2/ 164-168.

الفصل الأوّل

صورة السّلطان في دولة التّرك

أولاً: الصورة الإيجابيّة للسّلطان في دولة التّرك

1. النّسب الرفيع
2. الشجاعة
3. العدل
4. حب العلم
5. الكرم
6. التسامح والعفو
7. الالتزام بالدين ونصرته
8. محبة النّاس له
9. الوفاء للسّلطان
10. الجمع بين الصفات المعنويّة
11. الصفات الحسيّة للسّلطان
12. العمارة وأعمال الإصلاح

ثانياً: الصورة السّلبيّة للسّلطان في دولة التّرك

1. البطش والظلم
2. كثرة السلاطين
3. صغر سن السّلطان
4. حب النساء
5. فرض الضرائب

غالبًا ما نطق الشعراء بما فيهم من حب وإعجاب وتعظيم للسلطان القويّ العادل المُتمكّن من أعدائه، فعبروا عن مشاعرهم الفيّاضة بقصائد الثناء والتقدير، التي تُشيد بالنصر المؤزر، وتؤيّد سياسة الدولة في حربها مع أعداء الإسلام، وتثني على ما يتصف به السلاطين الأتراك من عدل، وكرم، وتسامح، والتزام بالدين، وتُشجع على الإنجاز الحضاريّ والعمرانيّ، وعلى الرغم من ذلك كلّه، كانت لديهم الجرأة على هجاء من كان ظالمًا ، وبخاصة إذا ما احتقر الشعب وحرّمهم من حقوقهم، وذكر صفاتهم السلبية، ومن خلال ذلك سنتناول الباحثة الصورة الإيجابية، والصورة السلبية للسلاطين في عصر الدولة التركيّة.

أولاً: الصورة الإيجابية للسلطان في دولة التّرك:

تغنى الشعراء في عصر دولة التّرك بالصفات الحميدة التي تحلّى بها السلاطين الأتراك، حيث وردت بشكل كبير في أشعارهم، ومن الصفات التي تغنّوا بها: النّسب الرفيع، الشجاعة، العدل، حب العلم، الكرم، التّسامح والعفو، الالتزام بالدين ونصرته.

1. النّسب الرفيع:

أشاد الشعراء في عصر دولة التّرك بالنّسب الرفيع للسلاطين المتوارث كابرًا من كابر، إذ أهلّهم لأن يكونوا قادة البلاد وسادتها.

أنشد الشيخ شمس الدّين الداعيّ أبياتاً¹ في الملك الناصر محمّد بن قلاوون بدا فيها مركزاً على ممدوحه الذي ورث الملك عن خير سلف، فهو ملك متوارث كابرًا عن كابر، ورث هذا النسب من أبيه المنصور، المشهور بغزواته وانتصاراته، فقال:

[الكامل]

واعلم بأنك لم تسد فيه سدى
فوجدت منصبه السريّ ممهدا
كمهدد خلف العداة مهندا²

يا وارث الملك العقيم تهنه
عن خير أسلاف ورثت سريره
يا ناصراً من خير منصور أتى

(1) لم أعثر على ترجمته.

(2) العيني، عقد الجمان، 147/5

ويستخدم المعنى نفسه الشاعر شهاب الدين العزازي¹، إذ مجّد السلطان التّاصر محمّد بن قلاوون، الذي كان وريث المجد والملك والسلطنة عن أسرته ذات النّسب الرفيع والسمعة الطيّبة.

[الخفيف]

ملكٌ شرف الممالك والعصم — وأوفى على الملوك وزادا
من أبوه قلاوون الملك الـ — أعظم كانت له المعالي تلامدا²
وأشاد الشعراء ببعض السلاطين، وأعادوا صلاحهم وإحسانهم وكرمهم إلى آبائهم، وفي ذلك يقول ابن أبي حجلة التلمسانيّ في مدح السلطان المنصور سيف الدين بن قلاوون أبياتاً ركز فيها على صفات النّقى والجود، ويدعو لأبيه بالرحمة والسّقى والغفران جزاء على إحسانه، وأن يسكنه جنات

الفردوس الأعلى، وأن يجعل مقامه مع رضوان خازن الجنة. [الطويل]

ملكٌ أبوه صالح أروى الورى — جوداً سقته سحائب الغفران
ملكٌ له الفردوس من إحسانه — وأبوه في الفردوس مع رضوان³
كان الشيخ عماد الدين إسماعيل بن كثير⁴، مقرباً من أهل بيت الملك منصور قلاوون، وكان قد أنشد أبياتاً أشاد بهذه الأسرة، ففي عهدهم كان البال مُنعماً هادياً، وحياة النّاس يسودها الحب والوئام، لا

تسمع قيل ولا قال، والعيش خالٍ من همّ. [الطويل]

سلامٌ على ربّع به نعيم البال — وعيشٍ مضى ما فيه قيلٌ ولا قال
لقد كان طيبُ العيش فيه مجرداً — من همّ والقوم اللوائم غُقال⁵

(1) هو أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم بن عبد العزيز بن جامع، شهاب الدين أبو العباس العزازي، التاجر بقبسارية، كان ظريفاً، جيد النظم في الشعر والموشحات، توفي (710 هـ) وله ثلاث وثمانون سنة، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات 99/7؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 1/193؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي 57/1.

(2) العيني، عقد الجمان، 4/158، التلاد: ما يورث عن الآباء، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (تلد).

(3) ابن أبي حجلة، الذّيان، ص 290.

(4) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء، الدمشقي، المعروف بابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، توفي سنة (774 هـ)، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه، أقبل على علم الأصول والحديث، وحفظ المتون والتواريخ، ينظر: العسقلاني، ينظر: الدرر الكامنة، 1/373، الزركلي، الأعلام، 1/220، عمر كحالة، معجم المؤلفين، 1/373.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/184.

وخلصه هذا الجانب أنّ الشعراء أشادوا بالنسب الرفيع لبعض السلاطين الأتراك، حيث ورثوا هذا

النسب عن خير سلف، فمدحوه وذكروا فضائلهم، وميزوهم عن باقي الخلق.

2. الشجاعة

كان للسلاطين الأتراك دور بارز في التصدي لخطر التتار عندما أرادوا أن يستولوا على مصر وبلاد الشام بعد ما سقطت بغداد على أيديهم، ولكنّ الأتراك استطاعوا أن يردّوهم ويدحروهم عن البلاد، فأبلوا بلاءً حسنًا في الحروب التي خاضوها مع دولة التتار¹.

وكذلك استطاعوا أن يدفعوا عنهم خطر الفرنجة الذين أسسوا لهم مستعمرات في الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية، وغزوا الكثير من المدن واستولوا عليها، فحاربهم السلاطين الأتراك واستردّوا منهم الكثير من المدن الشامية والمصرية، فتغنى الشعراء بالانتصارات التي حققها السلاطين الأتراك². في سنة (658هـ) جمع المظفر قطز جيشه، والنقى بالتتار في عين جالوت يوم الجمعة في الخامس والعشرين من رمضان، حيث كانت النصرة لقطز وجنوده³، فتغلّب على التتار، وأهلكهم وفرّق شملهم، فيقول لهم لا تغتروا بقوتكم فهناك من يستطيع التغلب عليكم، وفي ذلك يقول أبو شامة المقدسي⁴.

[الكامل]

من مصرَ تركي يجودُ بنفسه
ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه⁵

غلبَ التتارُ على البلادِ فجاءهم
بالشامِ أهلُكهم وبَدَدَ شملهم

(1) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، 2/248.

(2) ينظر: المرجع نفسه، 2/258.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/75.

(4) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان، شهاب الدين، أبو القاسم، أبو شامة، المقرئ، النحوي، أصله من القدس، ولد في دمشق سنة (599هـ)، قرأ القرآن وله دون العشر، كتب الكثير من العلوم، وأتقن الفقه، وبرع في العربية، له كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" وكتاب "الذيل"، توفي سنة (665هـ)، ينظر: الحافظ الذهبي، تاريخ الإسلام، 49/194؛ الصفي، الوافي بالوفيات، 18/67؛ الزركلي، الأعلام، 3/299.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/76، وقول "ولكل آفة جنسه" مضمن من: لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد

وتصدى السلطان الظاهر بيبرس للنتار، ففي سنة (671هـ) وردت الأخبار بحركة النتار إلى الرحبة والبيرة، فجهز السلطان بيبرس العساكر المصريّة والشاميّة، والتقى بهم على شط الفرات، فحاربهم وكانت الغلبة لبيبرس وجيشه، فلم ينجُ فيها من النتار إلا القليل.

وفي ذلك يقول شهاب الدّين محمود الحلبي¹ مصوراً شجاعة السلطان وفروسيته، إذ قطع رؤوس الأعداء وتركها تتراقص مترنحةً، وقطع النّهر بخيل سابعة سريعة، فعلى الرغم من قوة أمواجه وشدة رياحه، تكسرت الأمواج بسبب كثرة الخيول العابرة التي أضعفت تيار المياه الجاري في النهر، فلم يقدر على الثبات سوى جيشك الجرار، وعلى تلك المساعي الجبارة شكرتك الحصون والخلق لأنك دافعت عنهم وهزمت العدو، وكذلك الآساد والطيور لكثرة الجثث التي تركتها ملقاة لهم ليشبعوا منها:

[الكامل]

لَمَّا تَرَأَقَصَتْ الرَّوُوسُ وَحُرَّكَتْ	مِنْ مُطْرِبَاتِ قِسِيَّكَ الْأُوتَارُ ²
خُضَّتِ الْفُرَاتَ بِسَايِحِ أَقْصَى مُنَى	هُوجِ الصَّبَا مِنْ فَعْلِهِ الْآثَارُ ³
حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الْفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى	بِحَرًّا سِوَاكَ تُقَالُهُ الْأَنْهَارُ
وَتَقَطَّعَتْ فِرْقًا وَلَمْ يَكُنْ طُودُهَا	إِذْ ذَاكَ إِلَّا جَيْشَكَ الْجَرَارُ
شَكَرْتُ مَسَاعِيكَ الْمَعَاقِلُ وَالْوَرَى	وَالْتُرْبُ وَالْآسَادُ وَالْأَطْيَارُ ⁴

(1) هو محمود بن سلمان بن فهد، شهاب الدّين أبو النّساء محمود الحلبيّ الدمشقيّ، الإمام، العلامة، البارع، الكتب، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق، ولد سنة (644هـ)، له كتاب "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" و"أهنيء المنائح في أسنى المدائح، توفي سنة (725هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 167/25؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 324/4؛ الزركلي، الأعلام، 172/7.

(2) قيسيّ: جمع قوس، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (قوس).

(3) هُوج: جمع هوجاء، وهي الريح شديدة الهبوب، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (هيج).

(4) الصفديّ، الوافي بالوفيات، 335، 336/10.

ويقول بدر الدين يوسف بن المهمندار¹، كاشفاً عن هول معركة الفرات التي أريقَت فيها الدماء، فجرت كالسيل، وامتزجت بمياه الأنهار، وما زال السلطان متتبعاً لهم مقتنياً آثارهم حتى يستأصل شأفتهم بحيث لا يذر منهم أحداً، ولا يخلو البيت الثالث من مبالغة إذ اختلط الدم الجامد بالغبار على سيفه المصقول، وكأته لم يسئل سيفه من غمده.

[الكامل]

وَجَرَّتْ دِمَاؤُهُمْ عَلَى وَجْهِ النَّهْرِ
وَالظَّاهِرُ السُّلْطَانُ فِي آثَارِهِمْ
حَتَّى جَرَّتْ مِنْهَا مَجَارِي الْأَنْهَارِ
يُذْرِي الرُّؤُوسَ بِكُلِّ عَضْبٍ أَبْتَرِ²
ذَهَبَ الْغُبَارُ مَعَ النَّجِيعِ بِصَقْلِهِ
فَكَأْتَهُ فِي غَمْدِهِ لَمْ يُشْهَرِ³

وكان لذلك النصر أثر في نفوس الناس، فأظهروا إعجابهم بشجاعة السلطان القائد، وأثنوا عليه وافتدوه بالمال والأنفس؛ لأنه نصر دينهم وحفظ أرضهم، وفي ذلك يقول الحكيم موفق الدين عبد الله بن عمر الأنصاري⁴:

[السريع]

الْمَلِكُ الظَّاهِرُ سُلْطَانَنَا
اقْتَحَمَ الْمَاءَ، لِيُطْفِئَ بِهِ
نَفْدِيهِ بِالْمَالِ وَالْأَهْلِ
حَرَارَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْمُغْلِ⁵

(1) هو يوسف بن سيف الدولة بن زماخ الحمداني، المهمندار، ولد سنة (602هـ)، كان متجنداً، وله يد في النظم والتاريخ، وله تصانيف في الأنساب والبيدع، توفي بعد سنة (680هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 4/349؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 4/455؛ الزركلي، الأعلام، 8/233.

والمهمندار: هو مسؤول الضيافة، دوره الإشراف والعناية بزوار الدولة الرسميين من رسل وسفراء، ينظر: حسان حلاق وغيره، المعجم الجامع، ص214.

(2) العضب: السيف القاطع، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (عضب)

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 10/334، النجيع: الدّم، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (نجع)

(4) هو موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن نصر الله الأنصاري المعروف بالورن، كاتباً، أدبياً، فاضلاً، له مشاركة في علوم كثيرة، توفي سنة (677هـ)، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 2/211؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/240؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/625.

(5) الكتبي، فوات الوفيات، 1/239؛ الوافي بالوفيات، 10/335.

وفي سنة (673هـ) فتح السلطان الظاهر بلاد سيس¹، فهدم المدينة وأحرقها، وقُتِل الأعداء، وسيقت الغنائم²، فقال محيي الدين ابن عبد الظاهر³ شعراً مدح فيه السلطان، فجعله مالكا للأرض، وأفرده في حُكمها، ذلك البطل الذي استطاع أن يدمر سيس فجعل أعلاها أسفلها، والناس تقول: لا يمكن قلبها، فوظف الشاعر اسم المدينة سيس ليؤكد قول الناس، فهي عند قلب حروفها تبقى كما هي.

[البسيط]

يا مالِكُ الأرضِ الذي عزمه كم عامر للكفرِ مِنْهُ خَرِبُ
قَلْبَتِ سَيْسًا فوقها تحتها والنَّاسُ قالوا سَيْسَ ما تنقلبُ⁴

وفي سنة (675هـ) عاد التتار للإغارة على البلاد، فتوجّه بيبرس إلى حلب والنقى بهم ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس، هرب فيها ملك التتار، وانتصر فيها السلطان بيبرس ثم عاد إلى قيساريّة، فحاصرها واستسلم أهلها⁵، فمدحه شهاب الدين محمود الحلبيّ، بأنّه مغيث للدين، لقوته وجبروته، حيث كانت بشائر نصره مآتمًا للأعداء، وإذا أراد أن يفعل شيئًا فلا تعقه المصاعب، فقد

[الطويل]

استطاع أن يحزّر حصن الروم على الرغم من مناعته وقوته.

مليكَ يلوذُ الدّين من عزماته بركن له الفتح المبين دعائمُ
مليكَ به الدّين في كلّ ساعة بشائرُ للكُفّار منها مآتمُ
ولما رمى الرومَ المنيع بخيله ومن دونه سدٌّ من الصخرِ عاصمُ⁶

(1) أعظم مدن الثغور الشاميّة بين أنطاكية وطرسوس، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 297/3.

(2) ينظر: محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزاهر، ص435، 434.

(3) هو محيي الدين، أبو الفضل، عبد الله بن رشيد الدين، عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري، ولد سنة (620هـ)، وتوفي سنة (692هـ)، اشتهر بعمله في ديوان الإنشاء، وبتأليفه سيرة الملك الظاهر بيبرس، ينظر: محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزاهر، ص9؛ المقرئ، السلوك، 243/2؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 32/8.

(4) محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزاهر، ص436.

(5) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 251/2.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 152/7.

وفي وقعة أبلستين¹ 675هـ¹ قال ناصر الدين محمد بن الحلي² أبياتاً مدح فيها السلطان الظاهر:
فوصفه بالفارس المقدم في ساحة الحرب، وبالسيد الشجاع الكريم، الذي يقود الجيوش المظفرة إلى

[الطويل]

الروم، وبذلك يستحق الدعاء له بالرحمة أبد الدهر.

ونحنُ جلبنا الخيلَ في كلِّ غارةٍ
مع الفارس الكرار في حومة الوغا
عليه سلام الله مني تحيةً
ويستمرّ الصراع بين التتار والمسلمين، ففي عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عاد التتار إلى بلاد الشام، فجهز المنصور جيشه، وخرج للقاء العدو في حمص سنة (680هـ)، فدارت الحرب بين الفريقين وهزم التتار⁵.

[البسيط]

قال القاضي فتح الدين محمد بن عبد الظاهر⁶:

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو
يا أيها الملك المنصور قد كسرت
واستأصلوا شأفة الأعداء وانـ
هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
جنودك المغل كسراً ما له جبر
تصروا لما ثبتت وزال الخوف والدعز⁷

يخاطب الشاعر السلطان فيقول له: إنّ الله تعالى منّ عليك بهذا النصر المؤزر، فأنه هو المعطي

لا أحد غيره، وجنودك الأقوياء كسروا شوكة أعدائك المغل، فأزالوا أصلهم، وانتصروا عليهم.

(1) أبلستين، مدينة ببلاد الروم، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 75/1

(2) لم أعثر على ترجمته.

(3) الغضنفر: الأسد، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (غضف)

(4) بدر الدين العيني، عقد الجمان، 162/2.

(5) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 251/2.

(6) هو محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر، القاضي فتح الدين ابن القاضي محيي الدين المصري، ولد في القاهرة سنة

(638 هـ) صاحب ديوان الإنشاء، ومؤتمن المملكة بالديار المصرية، ساد في الدولة المنصورية بعقله ورأيه وهمته، توفي سنة (691 هـ)،

ينظر: لصفدي، الوافي بالوفيات، 290/3.

(7) العيني، عقد الجمان، 283/2، الشأفة: العداوة، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (شأف).

وتغنى ركن الدين الفارقاني¹، بشجاعة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وقوته، فهو يخوض غمار الحروب، ويقف وسط المعارك، وقد تغاضى عنه الموت، فكان جباراً، خوفاً للحروب، قتالاً للأسود، مضى بجيشه العظيم لقتال الأعداء، عند وطأة حمص بجانب ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث قال:

[الوافر]

هو المنصورُ خوَّاضُ المنايا أبو الغارات قَتَّالُ الأسود
مضى للشامِ في جيشٍ عظيم بأتراكٍ وأعرابٍ حشود
ولاقي المُغلَّ عند وطأة حمص بمشهدِ خالدِ نجلِ الوليد²

وفي هذا المعنى قال ناصر الدين حسن بن النقيب³، مادحاً السلطان المنصور، ذاكراً صفاته الحميدة التي تدل على شجاعته، فهو الملك الذي نصره الله على أعدائه، فخذلهم خذلاً، ونصره نصراً، وهو المقدم الكرار في ساحة الحرب، والأسد العادي على أنفس الأعداء، وهو القمر الهادي إذا أظلم الطريق.

[الطويل]

هو الملكُ المنصورُ والله خاندلٌ لأعدائه خذلاً وناصره نصراً
هو المقدمُ الكرارُ في حومةِ الوغى إذا حجم الأبطال وامتأوا واذغراً
هو الأسدُ العادي على أنفسِ العدى هو القمر الهادي إذا أظلم المسراً⁴

وعندما فتح السلطان المنصور قلاوون حصن المرقب في سنة (684هـ)، وحرره من أيدي الفرنجة، مدحه الشعراء، ومنهم محيي الدين بن عبد الظاهر، فخاطبه قائلاً: أنت يا فاتح الحصن، الذي فرح به المسلمون، ورضوا عنك حتى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم رضي عنك، فبقوتك وشجاعتك، سهلت الوصول إلى ذلك الحصن المنيع.

(1) لم أعثر على ترجمته.

(2) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص103.

(3) هو ناصر الدين أبو محمد حسن بن شاور بن طرخان بن حسن الكناني، ويُعرف بابن النقيب، من الأديباء الفضلاء، كان حسن النظم، شعره جيد عذب منسجم، له كتب " منازل الأحباب ومنازه الألباب"، توفي سنة (687هـ)؛ الصفيدي، الوافي بالوفيات، 29/12؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 317/7، الزركلي، الأعلام، 193/2.

(4) العيني، عقد الجمان، 286، 287/2.

[السريع]

يا فاتح الحصن الذي فتحة
يا ملك الأرض الذي عزمه
يأتي به شكرك من يثرب
قد سهل المرقى إلى المرقب¹
وفي الحدّث نفسه، راح محيي الدين بن عبد الظاهر يُمجد السلطان المنصور قلاوون ويخاطبه،
فيقول له أيها القائد لقد قُمت بهذا الفتح العظيم، وهناك فتوح أخرى لا يعلمها الناس، والبشرى في
فتوحات أخرى ستكون في المستقبل، فالكتب التي كتبت عنك هي كشعارك السلطانيّ مذهبة ولونها
أصفر، وهي كالأسوار المنيعة التي استطعت أن تخرقها، فأنت جاهز لخوض المعارك، والنصر

[المنسرح]

حليفك دائماً، أنت أبو الفتوحات تنسب لها، كما يُنسب لابن لأبيه:

كم لك فتح غير هذا خبي
وأبشر وبشر وإلى سائر الأمص
وخلّق الكتب كأسوارها
لا تحسب النصرة هذي وخذ
أنت أبو الفتح وكم بعدها
فاستوع فتح الأرض واستوعب
أر فاكذب عنك واستكتب
بأصفر من رنك المذهب
ما شنته من بعدها واحسب
يقول فتح إن هذا أباي²
وفي ذلك يقول العلامة شهاب الدين محمود الحلبي: إنّه على الرغم من ملامح الهدوء والحلم التي
تظهر على وجه السلطان، فإنّه يحمل كل معاني القوة والبأس، حيث ظنّ الأعداء أنّه ضعيف لا حول
له ولا قوة، لكنّه غير ذلك فهو كالخيل الأشقر الذي يشبه البرق في سرعته، ثم يقول: وإنّ أشبهت في
لطفك النسيم، فشدتك وقوتك كقوة الرياح العاتية التي لا تبقي ولا تذر.

[البيسط]

غر العدا منك حلم تحت هيم
لها وإن أشبهت لطف النسيم سري
لأشقر البرق من تحجيلها غرر³
معنى العواصف لا تبقي ولا تذر⁴
ويُهنئ أحد الشعراء السلطان بالانتصار على الفرنج عندما فتح حصن المرقب، فيُعظم من شأنه
ويُعلي من مقامه، فهو ملك الأرض جمعاء، وجيشه كبير منتشر في مشارق الأرض ومغاربها، فقد قام

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص82.

(2) المصدر نفسه، ص82.

(3) التحجيل: المحجل من الخيل أن تكون قوائمه الأربع بيض، ينظر: اللسان، ابن منظور، مادة (حجل)

(4) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين محمود الحلبي، ص122

بفتح هذا الحصن العظيم رغم منعته وحصانته، فلا أحد سبقه لفتح هذا الحصن، وهذا يدل على أنه ليس من السهل السيطرة على هذا الحصن والاستيلاء عليه، فلولا قوة السلطان، وشجاعته لما فُتح هذا الحصن.

[السريع]

يا ملك الأرض الذي جيشه
هئئت بالحصن العظيم الذي
يملاً من غرب إلى مشرق
لفتح غيرك لم يسبق¹
وفي وسط فرح الناس وبشائرهم، يتغنى الشاعر شهاب الدين محمود بالنصر في فتح هذا الحصن العظيم، ويبدأ قوله بالتكبير لعظمة هذا الحدث، فهو ما كانت ترجوه الآمال منذ زمن بعيد، فشبّه الشاعر هذا النصر بالمجرة في السماء، وبالنهر الجاري الذي لا يُماتله شيء، يأتي متبخترًا، متكبرًا، وشبّهه أيضًا بالمرأة الجميلة، العذراء.

[البيط]

الله أكبر هذا النصر والظفر
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت
أوردتها المرّقب العالي وليس سوى
كأنه وكأنّ الجوّ يحنّفه
يختال كالعادة العذراء قد نظمت
هذا هو الفتح لا ما تزعم السير²
إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
ماء المجرة في أرجائها نهر
وهم تمثله في طيها الفكر
منه مكان اللآلي الأنجم الزهر³
وفي سنة (688هـ) أمر السلطان العساكر الخروج إلى الشام لغزو طرابلس وفتحها، لأن أهلها نقضوا قواعد الصلح، ففتحها السلطان المنصور قلاوون يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة، وحررها من أيدي الصليبيين، قال بدر الدين المنبجي⁴ يمدح السلطان مشيدًا بقوته وشجاعته، وجهوده الجبارة التي

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر، تشرف الأيام والعصور، ص 83.

(2) تتعارض هذه الأبيات مع قصيدة مشهورة للرشيد النابلسي في مدح صلاح الدين: هذا الذي كانت الآمال تنتظر فليوف الله أقوام بما نذروا هذا الفتح الذي جاء الزمان به إليك من هفوات الدهر يعتذر، ينظر: مشهور الحجازي، شعر الرشيد النابلسي، ص 133.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 269-271.

(4) هو محمد بن عمر بن أحمد بن المثنى، المنبجي، بدر الدين ولد بمنّيج، سمع من أحمد بن عبد الدائم بدمشق ومن النجيب بمصر، له معرفة بفقّه الشافعيّة، وتخرج في الأدب وتوفي سنة (723هـ)، الصفيدي، الوافي بالوفيات، 4/200؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 4/102.

وصلت إلى الغاية المرجوة، وأعلى الرُّتب، فبذلك الغزو أخاف الأعداء، ونصر الحق، واكتسب الأجر،

[البسيط]

وبهذا الفتح حقق ما لم يقدر عليه أحد من الملوك قبل، قال:

أدرکت بالجدّ أقصى غاية الطلب
للهول مرتكبٌ للحقٍ مُنتصِر
ونلت بالجدّ أعلى منتهى الرُّتب¹
أبأ المُظفّر لا زالت مظفرة
للعزو مُحْتَسِبٌ للأجرِ مكتسب
منك الجيوش على الأعداء بالرُّغب
جمع الملوك ذوي الإرعاب والزَّهب²

ومدح شهاب الدّين محمود الحلبي السّلطان المنصور قلاوون حين خرج من مصر إلى الشّام

قاصداً فتح طرابلس التي أقل ما فيها من العناء هو أنّ خندقها البحر، وهذا دليل على قوّة السّلطان

[الطويل]

وشجاعته الذي استطاع أن يحقق النصر المُعظّم.

ألا هكذا يا وارث الملِكِ فليكن
نهضت إلى عليّا طرابلس التي
جهادُ العدا ما توالى الدَّهر
أقلُّ عناها أنّ خندقها البَحْر³

وعندما تولّى السّلطان الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة بعد أبيه، وكان السلطان المنصور قد

أوصى ابنه أن يحافظ على مماليكه، وأن يحسن إليهم، ويحفظ إقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشّام وأن

يحافظ على مصالحهم⁴ ، وصفه ابن تغري بردي: " كان الأشرف مفرط الشجاعة والإقدام، وجمهور

النّاس على أنّه أشجع ملوك التّرك قديماً وحديثاً بلا مدافعة"⁵، ومن بطولاته أنّه فتح عكا وحرّرها من

الصليبيين سنة (690هـ) امتدحه شهاب الدّين محمود الحلبي بقصيدته البائية المشهورة التي عدّد فيها

مناقبه وصفاته، فهو أسدٌ شجاع، يدافع عن الأمة الإسلاميّة، ولم يمنعه ملكه من محاربة الأعداء، لقد

حقّق من النصر ما لم يفعله غيره، وقد أطلع الأشرف المصطفى، صلّى الله عليه وسلّم، على ما قام

به وشاركته الكعبة فرحته تلك، ويعبّر عن ذلك:

(1) في هذه الأبيات معارضة لقصيدة أبي تمام التي مطلعها: السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب في حده الحدّ بين الجدّ واللعب .

(2) بدر الدّين العيني، عقد الجمان، 383/2، 384.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 275/7 .

(4) العيني، عقد الجمان، 23/3.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 22/8.

[البسيط]

يدعون ربّ الغلى سبحانه بأب
نال الذي لم ينله الناس في الحقب
للعجز عنه ملوك العجم والعرب
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
بفتحه الكعبة الغراء في الحقب
بك الممالك واستعلت على الرتب¹

ليث أبى أن يردّ الوجه عن أمم
لم يلهه ملكه بل في أوائله
لم ترض همته إلا الذي قعدت
وأشرف المصطفى الهادي البشير على
فقر عيناً بهذا الفتح وابتهجت
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت

وبعد فتح عكا قام السلطان الأشرف خليل بفتح قلاع وحصون أخرى، وفي ذلك قال ابن دانيال

الموصلي² أبياتاً، مدح فيها السلطان الأشرف، فناده الشاعر وكرر الإشارة إليه ذاكراً اسمه ليؤكد أنه بطل شجاع، قام بالعديد من الفتوحات، فعن مفاخره يحكي التاريخ، وتوالت الفتوحات التي قام بها واحدة تلو الأخرى.

[الخفيف]

ين ما كان عن سميك يحكى
ث وبيروت بعد فتح عكا

قد رأينا وأنت أنت صلاح الد
صدت صيدا قنصاً وصور وعثلي

ولما فتح الأشرف بن قلاوون قلعة الروم سنة (691هـ)، فإنّ هذا الفتح قد أثار مشاعر الشعراء، ومنهم شهاب الدين محمود الحلبيّ فراح يثني على بطولة القائد الذي أدار المعركة، فالسيوف تبرق في غبارها كالبرق في الليلة الظلماء، وقائدها البدر المنير، وموج البحر المضطرب لشجاعته وقوته، فهو صاحب الانتصارات المتوالية، وهذا النصر وإن كان عظيماً فما هو إلا جسر لانتصارات أخرى سيقوم بها السلطان مع جيشه التركيّ الذي يشبه الليوث قوة وإصراراً وشجاعةً، فحصونهم القنا لا الحصون المنيعّة التي يحتمون بها، وبالتالي فهم يسجلون في كل يوم نصراً يضاف إلى انتصاراتهم الخالدة، وقد

(1) الصفديّ، الوافي بالوفيات، 409-407/13.

(2) هو محمّد بن دانيال بن يوسف الموصلي الحكيم الفاضل الأديب، شمس الدين صاحب النظم الحلو، كان كثير النوادر والرواية، مصنف كتاب "طيف الخيال" الشاهد له بالمهارة والفن، وله أرجوزة سماها " عقود النظام في من ولي مصر من الحكام"، توفي سنة 710 هـ، ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، 330/3؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 436-434/3؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 215/9.

تعود هذا الجيش على القتال في ضروب الأرض وسهولها دون كلل أو ملل، ومضى مُحققاً نصرًا تلو

[الطويل]

الآخر.

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَخَفَقُهَا
وَفَتْحٌ أَتَى فِي إِثْرِ فَتْحِ كَأَنَّمَا
وَمَا قَلْعَةُ الرُّومِ الَّتِي حُزَّتْ فَتَحَهُ
لِيُوثَّ مِنَ الْأَتْرَاكِ آجَامُهَا الْقَتَا
إِذَا صَدَمُوا شَمَّ الْجِبَالَ تَزَلَّزَلَتْ
فَأَحْرَزَتْهَا بِالسَّيْفِ قَهْرًا وَهَكَذَا
فِي أَسْرَفِ الْأَمْلَاكِ فُزَّتْ بَغْرُوزَةٌ
بُرُوقٌ، وَأَنْتِ الْبَدْرُ وَالْفَلَكَ الْبَحْرُ¹
سَمَاءٌ بَدَتْ تَتَرَى كَوَاكِبَهَا الزُّهْرُ
وَإِنْ عَظُمَتْ إِلَّا إِلَى غَيْرِهَا جَسْرُ
لَهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي ذُرَى ظَفْرِ ظُفْرٍ²
وَأَصْبَحَ سَهْلًا تَحْتَ خَيْلِهِمُ الْوَعْرُ
فَتَوَحَّكَ فِيمَا قَدْ مَضَى كَلَّهُ قَسْرُ
تَحَصَّلَ مِنْهَا الْفَتْحُ وَالذِّكْرُ وَالْأَجْرُ³

ويقول شهاب الدين محمود ابياتًا، يتغنّى فيها بالنصر الذي حققه السلطان الأشرف خليل، حيث رُفعت الراية الصفراء تُرْفرف عاليًا، معلنةً النَّصر على الأعداء، وكان ملوك الأعداء قد رأوا تلك الراية مرفوعة، فكَسرت هيبتهم، وتوالت الفتوحات والانتصارات التي حققتها أيُّها السلطان، هي كالسماة تَلَأَلَتْ بكواكبها التي ظهرت في أول الشهر، فكم داست قدمك الكثير من المعائل التي لم يقدر أحد على تحريرها أو الوصول إليها، إذ بقيت مدة طويلة كالعانس البكر، ولكنك بقوتك وعزمك قُمت بفتح هذه المعائل، ولولا مهابة هذه المعائل لك، ولولا حياؤها منك لطلبت النَّقرب منك بلا مهر، فقد شبه الشاعر تلك المعائل بفتاة أعجبت بهذا البطل وأرادت أن تتقرب منه ولكنَّها لم تجرؤ على ذلك.

[الطويل]

لَكَ الرَّايَةَ الصَّفْرَاءُ يُقَدِّمُهَا النَّصْرُ
وَفَتْحٌ أَتَى فِي إِثْرِ فَتْحِ، كَأَنَّمَا
فَكَمْ وَطِئَتْ لَهَا طَوْعًا وَكُرْهًا مَعَاقِلًا
بَذَلَتْ لَهَا عَزْمًا فَلَوْلَا مَهَابَةٌ
فَمَنْ كَيْقَبَاذُ إِنْ رَأَاهَا وَكَيْخَسْرُو⁴
سَمَاءٌ بَدَتْ تَتَرَى كَوَاكِبَهَا الزُّهْرُ⁵
مَضَى الدَّهْرُ عَنْهَا، وَهِيَ عَانِسَةٌ بِكُرْ
كَسَتْهَا الْحَيَا جَاعَتُكَ تَسْعَى، وَلَا مَهْرُ⁶

(1) "وَكأنَّ مَثَارَ النَّقْعِ لَيْلٌ" مضمّن من قول بشار بن برد: كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ.

(2) أجام: جمع الأجم وهو الحصن، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (أجم)

(3) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص 220-223.

(4) كيقباز: هو علاء الدين ابن كيخسرو ابن قُلُج أرسلان سلطان الروم السلجوقي، كان ملكًا مهيبًا راجح العقل، كسر خوارزم شاه، كانت وفاته سنة 634هـ، وكيخسرو: ابن كيقباز ابن كيخسرو السلجوقي صاحب الروم، تسلطن بعد أبيه وهو شاب، توفي سنة 643هـ، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 290/7-291.

(5) الزهر: ثلاث ليالٍ من أول الشهر، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (زهر).

(6) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص 220 - 221.

وفي سنة (702هـ) كانت غزوة مرج صُفر¹ التي انتصر فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون على التتار، وعلى إثر ذلك مدحه الشعراء، ومنهم بهاء الدين أبي الحسن علي بن أبي سواده²، فكشف عن الصفات التي يتحلى بها ممدوحه، فهو ذو مكانة عالية ترقى إلى السماء رتبة، لا بل محلّه فوق السها والفرقد، ويشيد بشجاعته وفتكه بالأعداء، وبنواله وعطائه للسائل، فهو أول من يتقدم الجيش، فيتعثر فرسه بجثث أعدائه، ويدعو له أن يحفظه الله كي يصدّ المغول ويمنعهم من مهاجمة المسلمين.

[الكامل]

ملكٌ سما فوق السماءك ترفعا	محلّه فوق السّها والفرقد
ضربَ أعناقَ العدا فحسامه	للمعتدى ونواله للمجتدى
وتراه أول طاعن يوم الوغى	والخيل يعثر بالوشيح ³ الأملد
الناصر المنصور دام مؤيدا	يقفي المغول بلهزم ومهند ⁴

وقال بدر الدين المنبجي، مفتخرًا بالانتصار في هذه الواقعة، إنّ بشارت النصر جعلت الناس يطيروا من الفرح، فتلك البشائر كانت الآمال تنتظرها منذ زمن، فلم يرَ الناس فتحًا مثل هذا الفتح العظيم إلا فتوح عُمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وتحدثت عن أخبارها القوافل المسافرة، وبهذا

النصر رفعت أعلام الإسلام، وكُسر الأعداء كسرًا كبيرًا لا ينجبر.

[البسيط]

بشائر طار الإقبال طائرها	لمثلها كانت الآمال تنتظر
ما شاهد الناس فتحا مثله أبدا	إلا فتوحا تولّى أمره عمر
سارت بأخبارها الركبان واقعة	لم تحو أمثالها الأخبار والسيّر
رُفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد	جرّدت للشرك كسرا ليس ينجبر ⁵

(1) مرج صُفر: هو موضع بين دمشق والجولان، ينظر: الحموي، معجم البلدان، ص413.

(2) هو علي بن علي بن محمد بن أبي سواده، بهاء الدين كاتب السر بحلب، كان فاضلاً نبيلًا ماجدًا، وله نظم ونثر، له في وقعة غازان فضائل جلييلة، توفي بحلب سنة (724هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 86/3؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 130/8.

(3) الوشيح: السيف عندما يلبس، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (وشح).

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، 250/1، واللهم: القاطع من الأسنة، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (ل هـ ذ).

(5) العيني، عقد الجمان، 275/4 - 276.

وامتدادًا لصورة السلطان المثالية، كان لجيش السلطان نصيبًا من المدح حيث صور الشعراء ذلك الجيش الذي قام السلطان بتجهيزه وتدريبه على أساليب القتال بأبهى صورة، فكانت تلك الصورة استكمالًا لصورة السلطان القائد الشجاع.

فكان جيش المسلمين في عصر دولة التُّرك قد أبلى بلاءً حسنًا في المعارك، الأمر الذي جعل شعراء هذا العصر يتغنون ويفتخرون بقوة الجيش، ففي وقعة الفرات (671هـ) تغنى الشعراء ببطولة وقوة جيش المسلمين، فقد أتى جيش النبي محمد، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقوده الملك الظاهر بيبرس، يلبسون عصائب عليها شعار الملك، وهذا الملك كالأسد في شجاعته يتصيد الأعداء ويتغلب عليهم، وامتلأ نهر الفرات بالخيول والسيوف والرماح، وهذا يدل على كثرة جيش التركي وما يحملونه من عدّة الحرب، ولما شاهد العدو هذا المنظر، ولّى هاربًا، فقد أحاط بهم العذاب، وهذا كله بسبب ما رآه من بطش وقوة جيش التركي.

[الكامل]

فأتاهم جيش النبي يومهم	ملك الزمان الظاهر الآلاء
بعصائب سودٍ عليها زنكهُ	أسدٌ يصيد فوارسَ الهيجاء
عام الفرات إليهم بصواهل	ومناصلٍ وعواسلٍ سمراء
فانقل جيشهم وولّى هاربًا	قد حاطهم ويلٌ وفرطٌ بلاء ¹

ويُصور محيي الدين بن عبد الظاهر وقعة الفرات (671هـ)، وكأته واحد من جنود الله الذين خاضوا المعركة حيث احتشدت جيوش هائلة من العدو على شاطئ الفرات، وظنوا أنّ الغلبة لهم قبل أن يروا جحافل المسلمين الذين خاضوا المعركة بخيلهم القويّة التي قطعت المياه قفزًا، فجاءت جنود الله للمعركة بأعداد هائلة، وضربوا العدو بسيوفهم ورماحهم، وهم سابحون في المياه، ولم يستطع العدو أن يخترق هذا السدّ القوي المنيع الذي شكلوه من أجسادهم وسيوفهم.

(1) العيني، عقد الجمان، 104/2، الأحداق: السواد المستدير وسط العين، هُذب: من الهدبة وهي الشعرة الثابتة على سفّر العين، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادتي (حذق) و (هدب).

[الطويل]

تجمّع جيشُ الشَّرِكِ من كلِّ فرقةٍ
وجاءوا إلى شاطئِ الفراتِ وما دروا
وجاءتْ جنودُ اللّهِ في العددِ التي
فعمنا بسدِّ من حديدٍ سباحةً
وظنّوا بأنّنا لا نطيقُ لهم غلبا
بأنّ جيادَ الخيلِ تقطعها وثبا
تميسُ لها الأبطالِ يومَ الوغى عجبا¹
إيهم، فما استطاع العدوُّ له نقبا²
وهذا ابن النقيب يفتخر بالجيش وكثرته في معركة الأبلستين (675هـ)، فالجيش انتشر في كل
مكان في الأرض، حتى أصبح من الصعب حصر عددهم، ومن رأى هذا المشهد الجلل، تخيل أنّ يوم
القيامة أمامه، وهذا يدل على هول الحدث وكثرة الجيش.

[الطويل]

عسائرُ ملءُ الأرض من كلِّ وجهةٍ
تخيّل رائيها القيامة مُثلت
تجمعن حتى فات العدّ الحصرا
لعينيه في دُنياه والعرض والحشرا³
وفي هذه الواقعة أشار شهاب الدّين محمود الحلبيّ إلى عزيمة القائد بيبرس القوية التي تسابق
الرياح بقوتها، فجيوشه غطت الأرض لكثرتها، وكانت كتائب جيشه كالبحر الذي تلاطمت أمواجه، وقد
أحاطت هذه الجيوش بقائدها والتفت حوله رافعةً لواء النّصر والتأييد من الله تعالى. [الطويل]

كذا فلتكن في اللّهِ عزُّ العزائم
عزائمٌ جازتها الرياح فأصبحت
بجيشٍ تظل الأرض منه كأنّها
كتائب كالبحر الخضم جيادها
وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم
مخلفة تبكي عليها الغمام
على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
إذا ما تهادت موجه المتلاطم⁴
له النّصر والتأييد عبد وخادم⁵
تحيط بمنصور اللّواء مظفر

(1) تميس: نقول ماس، يميس، ميساً إذا تبختر في مشيه واختال، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (ميس).

(2) الكتبي، فوات الوفيات 1/238، اقتباس من الآية القرآنية " فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً" الكهف، 18/97..

(3) المصدر نفسه، 2/287.

(4) الخضم: لكثرة مائه وخيره، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (خضم)

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات 10/346؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/152.

ويفتخر بدر الدين المنبجي بشجاعة الجيش في فتح طرابلس (688هـ)، فهم أسود في المعركة يبلون بلاءً حسناً، عقبان كاسرة جارحة، وفرسان لا يخافون الموت، فقد جاؤوا من كل مكان، وأحاطوا بها وحاصروها من كل جانب، كما تحيط الأهداب العين.

[البسيط]

آسَادُ مَعْرِكَةٍ عُقْبَانُ مَفْتَالَةٍ فِرْسَانُ مَلْحَمَةِ الْمَوْتِ لَمْ تَهَبِ
مَنْ كُلِّ قَطْرٍ أَحَاطُوا مُحَدِّقِينَ بِهَا كَمَا أَحْيَيْتَ عَلَى الْأَحْدَاقِ بِالْهُدْبِ¹

وفي مرج صُفر يفخر علاء الدين ابن عبد الظاهر بجيش المسلمين، ويصوّر قدومهم للمعركة أجمل تصوير، فهم يأتون سراة في الصباح الباكر، والجهاد في سبيل الله برأيهم صيام وفطورهم المفضل الموت في سبيل الله، يشجعون بعضهم بعضاً، يقولون علينا الثبات في المعركة، ويدعو لهم الشاعر بالخير، فقد سفك الجيش التركيّ الكثير من الدماء، وشق الكثير من الرؤوس، وأمّا طعنات العدو للأتراك فأدّت إلى تكسر رماحهم، فكانت بلا فائدة، ولكن الضربات التي وُجّهت للعدو كانت قاسية حتى إنّ سيوف الأتراك رجعت حمراء اللون، وهنا أبدع الشاعر في تصوير الجيش التركيّ بصورة رائعة، فقد كان جيشاً شجاعاً، مغواراً، لا أحد يتغلب عليه.

[الطويل]

عُدَاة يَرُونَ الْقَتْلَ فِي اللَّهِ طَاعَةً صِيَامٌ يُوَدُونَ الْحِمَامَ لَهُمْ فِطْرًا
تَدَاوُوا وَقَالُوا فِي الثَّبَاتِ حَيَاتِنَا وَمَنْ هَهُنَا نَلْقَى النِّجَاةَ أَوْ الْخُسْرَا
وَلِلَّهِ دَرَّ التُّرْكُ كَمَا سَفَكَتَ دَمًا وَكَمْ فَلَقْتَ رَأْسًا وَكَمْ طَعَنْتَ نَحْرَا
وَكَمْ طَعَنْتَ بِالسُّمْرِ حَتَّى تَقْصَفْتَ وَكَمْ ضَارِبَتْ بِالْبَيْضِ حَتَّى انْتَثَتْ حُمْرًا²

وهذا الفقيه عبد القاهر التبريزي³، يُصور الجيش في مرج صُفر والهيئة التي أقبلوا فيها حيث جاء الجيش المنتصر وجُند الملائكة أمامه بأعداد لا تُحصى، فقد خاضت الجيوش المعركة وانتصر

(1) العيني، عقد الجمان، 384/2.

(2) المصدر نفسه، 272/4.

(3) هو عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد التبريزي، الحراني، الدمشقي، قاضٍ، له شعر، أصله من تبريز، ولد في حران، ونشأ في دمشق، ولي قضاء صفد وعزل، ثم ولي قضاء دمياط، له مجموعة خطب، توفي سنة (740هـ)، ينظر: الزركلي، الأعلام، 49/4.

جيش مصر على الأعداء، فالجند الذين يقاتلون من أجل الله، يكون النصر حليفهم دائماً، فقد ثاروا ليأخذوا حقهم من مغتصب أرضهم، وبادروا في طلب المجد والشرف، وسهروا الليل ولم تغفُ أعينهم أبداً، وأحضروا خيلهم لابسة اللجام استعداداً للمواجهة، وأحضروا ركاب الخيل دون كلل ولا ملل، وكلّ هذا استعداداً لخوض المعركة، حيث كان التخطيط والتحضير والاهتمام بأدق التفاصيل. [البيسط]

وأقبل العسكر المنصورُ يقدّمه	من الملائكة جُنْدٌ ليس تنحصرُ
كِنَانَةُ اللَّهِ مصر جُنْدَهَا ثَبَّتْ	لا ريب فيه وجُنْدُ اللَّهِ تنتصرُ
ثاروا سِراعًا إلى إدراك ثأرهم	وهجّروا في طلب المجد وابتكروا
وأسهروا أعينا في الله ما رقدوا	أكرم بقومٍ إذا نام الورى سهروا
وأوقفوا نفرًا بالخيل مُلجَمَةً	وبالركاب وما ملّوا ولا فتروا ¹

ولمّا فتح السلطان الأشرف خليل قلاوون عكا في سنة (690هـ)، قال شهاب الدين محمود الحلبي مفتخرًا بقوة الجيش التركي، الذين يعتبرون ترك الحرب وعدم الأخذ به عارًا عليهم، فأيديهم قوية لا أحد يتغلب عليهم، فهي بيضاء صافية، كالعسل الأبيض، وحاصروا عكا برًا وبحرًا، واعتلوا أسوارها وقلاعها، فهدموها، ولم يتركوا منها شيئًا دون هدمه. [البيسط]

جيشٌ من التُّركِ تركُ الحربِ عندهمُ	عارٌ، وراحتهم ضربٌ من الضرب ²
خاضوا إليها الردى والبحر فاشتبه الـ	أمرن واختلفا في الحال والسبب
تسنّموها فلم يترك تسنّمهم	في ذلك الأفق بُرجًا غير مُنقلب ³

وفي الموقف نفسه، يفتخر شرف الدين البوصيري حيث استولى المسلمون علي عكا، وأشبعوا فيها الكافرين ضررًا وغلبًا، وسار السلطان إليهم بخيول قويّة قادرة على زلزلة الجبال، فالأتراك أقوياء أقسموا على أن لا يتركوا للفرنج ملكًا في بلادهم، فعبر عن ذلك:

(1) العيني، عقد الجمان، 273/4.

(2) الضرب: العسل الأبيض الغليظ، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (ضرب).

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 408/13، تسنّموها: اعتلوها، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (سنم).

[مخلع البسيط]

وأشبعوا الكافرين صغًا
خيلاً تَدُكُ الجبال دَكًا¹
لا تتركوا للفرنج ملكًا²

قد أخذ المسلمون عكًا
وساق سلطاننا إليهم
وأقسم التُّركُ منذُ سارت

ومن مظاهر شجاعة السلطان التركي هزيمته للعدو، فقبل معركة مرج صفر كان غازان قد أرسل كتابًا للمسلمين" يقول فيه: "ما جننا هذه المرّة إلا للفرجة في الشام"³ وهذا يشير إلى استخفافه بأهل الشام فهم غير قادرين على صدّ هجومه، قال الوداعي يسخر من غازان وجيشه حيث أصبحوا هم فرجة بعد هزيمتهم في المعركة، ففي ساحة المرج عدت أجسامهم الملوخة بالدماء عرضة للناس يتفرجون عليها، كشقائق التّعمان الحمراء، فكانت هذه الفرجة بالنسبة لهم شؤم ونحس عليم، لكنّها جلبت الفرحة والبركة للإسلام. يقول:

[الكامل]

جاءوا ففرّجناهم في الشام
منشورها وشقائق الأجسام
فرجة غمت وأبركها على الإسلام⁴

قولوا لغازان بأنّ جيوشه
في سرحة المرج التي هاماتهم
ما كان أشأمها عليهم

يقول شهاب الدّين محمود الحلبي: لهب تصافح السيوف، وشر السهام، ونار المناجيق، أضرمت حول حصن المرقب نارًا تشبه ما تحدّثه سيلان دم فريسة الأسود، والنقوب التي تحدّثها المجانيق في الأسوار تشبه المرض في مفاصل المريض، وذلك كناية عن تهاوي العدو وضعفه. [البسيط]

من السيوف، ومن نبل الوغى شرر
فرائس الأسد في أظفارها الظفر
تثير سُقمًا، ولا يبدو له أثر⁵

وأضرمت حولهُ نارٌ لها لهبٌ
كأنّها ومجانيقُ الفرنج لها
وللنقوب ديببٌ في مفاصله

(1) اقتباس من الآية القرآنيّة ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾، الفجر، 21/89.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13.

(3) الصفدي، أعيان العصر، 86/5.

(4) المصدر نفسه، 78/5.

(5) عادل العزاوي، شعر شهاب الدّين الحلبي، ص 215.

ومن صور التي تدل على شجاعة السلطان التركي أنه جعل أوقات لعبه ولهوه مرتبطة بصوت السيف والرمح والخيل، فاشتهر السلاطين في الدولة التركيّة بشغفهم بألعاب الفروسية، والصيد، والرياضة، وعملوا لذلك ميادين فسيحة مثل: ميدان القبق الذي أنشأه الظاهر بيبرس، وكذلك اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون باقتناء الخيول، وأمّا الألعاب الرياضية فقد شغف السلاطين بالصيد وموعده في فصل الربيع حيث كان يذهب السلطان عدّة مرات للصيد، مصطحباً معه الأمراء والأترّك، وكان طريقة الصيد يبدأ بأن يُطلق الطير في السماء ثمّ يرمى لها الحَب لتلتقطه، ويتم اصطيادها، وبعد ذلك يذهب السلطان لصيد الوحوش.¹

في سنة (672هـ) أمر السلطان بيبرس بأن يُنصب القَبْق، بعد ما طَهَرَ ولده الخضر، وكان اللعب بالقبق يشتمل على سباق الخيول ، ورماية السهام والكر والإقدام²، وكان ذلك للهو والترفيه عن النَّفس، فقال بعض الشعراء:

[الخفيف]

ذاك يومٌ لها عن اللهو فيه ويُغنى عن مُطربات الأغاني
 بصليلاً لمُرهفٍ وصهيبِلي لـجـوـادٍ، ورثّةً لادان³
 لا تراه في السلم والحرب إلا بين رمح وصارم وسانان⁴
 وتعليقاً على ما سبق، أراد السلطان الاحتفال في هذا اليوم البهيج، فخصّص يوماً للعب بالقَبْق، وكان ذلك اليوم بالنسبة لهم يُغني ويَسدّ عن حفلات الطرب والأغاني، حيث كان الفرح نابع من صوت السيف الحاد الطرف الرقيق، وصوت الخيل، وصوت الرمح ، فهو في الحرب والسلم يستخدم الرمح والسيف وكل ما يتعلق بهما، وهذا يدل على أنّ جو خوض المعارك الذي كان يعيش فيه السلاطين

(1) ينظر: سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص78-80.

(2) ينظر: بيبرس المنصور، التحفة الملوكية، ص79.

(3) لادن: الرمح، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (لدن).

(4) العيني، عقد الجمان، 114/2، مُرهف: يُقال: أرفهت سفي أي رققته، ابن منظور، اللسان، مادة (رهف).

الأتراك، والأتراك أنفسهم، حيث كانوا يعشقون تلك الأجواء، قد أثر ذلك بهم وجعلهم يمارسونها حتى في أوقات لهوهم ولعبهم.

وكان السلطان الملك الأشرف خليل قلاوون رمى كركى¹ له بالبندق فقال سراج الدين المحار مادحاً إياه، فيقول له لقد زدت شرفاً ووصلت إلى أرقى منازل الشرف عندما عقدت النية على ذلك وهذا بسبب ما قُمتَ به من بطولات، وانحنت لك الملوك خوفاً وإجلالاً لعظمتك، وهذا فضل من الله تعالى مدير أمورك، فهذا الإنقياد والخضوع كان طوعاً منهم وليس إجباراً لأنهم يقدرّون ما قام به من أعمال بطوليّة، وكل الأعمال التي يقوم بها لها قيمة سواء في أيام السلم أو غيره، حتى طائر الكركى غنى له

إجلالاً وإكباراً له، فهو خليفة الخلفاء يستحق ذلك: **[الكامل]**

يا أيُّها المنصورُ طُلَّ شَرَفًا فَقَدُ
خَضَعْتَ لِهَيْبَتِكَ الْمُلُوكُ وَأذَعَنْتَ
كُلَّ أفعالِهِ إِلَى الجَدِّ تُعزى
وَرَبَّتْ لَكَ الطَيْرُ الْجَلِيلُ جلالَةَ
حاز اِعْتِزَامُكَ ذرْوَةَ العَلِياءِ
طَوَّعَا بِأَمْرِ مُدَبِّرِ الأَشْياءِ
يَوْمَ سَلَمَ، أو لا فيومِ رِهانٍ²
فالْيَوْمَ أَنْتَ خَلِيفَةُ الخُلَفاءِ³

وكان جيش السلطان الأشرف قد تعلق بلعب القَبْقُ حيث تُرمى السهام، وتتسابق الخيل، وكان ذلك العرض الذي قوم به المتسابقون كمشهد يوم القيامة يكون فيه الناس صفّاً لأخذ نتيجتهم:

[البيسط]

والجيشُ بالقَبْقِ المنصورِ قد ولِعوا
كأنما العَرَضُ يَوْمَ العَرَضِ إذ عَرَضُوا
بكلِّ طائِشَةٍ والقوسُ مِرْنانُ
عليه صَفًّا ولِلإِعْطاءِ مِيزانُ⁴

ومن صور الشجاعة أنه التحق بعض الأتراك في مصر بنظام الفُتُوَّة⁵ العسكرية نتيجة الحروب مع الفرنجة والتتار، فكانوا يتعلمون الأعمال الحربية ويتمرنون عليها، ويتخذون من الصيد وسيلة لتعلم

(1) الكركى: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتز الذنب، قليل اللحم. ينظر: إبراهيم أنيس، المعجم الوسيط، ص 784.

(2) الفيوم: بلد في مصر، ينظر: الحموي، معجم البلدان، ص 286.

(3) سراج الدين المحار، الديوان، ص 44، الرّنة: صوت في فرح أو حزن، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (رَن).

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13.

(5) الفُتُوَّة: مصطلح كان يطلق على جماعات شبه منظمة، لها سراويل خاصة، ينظر: حسان حلاق، المعجم الجامع، ص 160.

الفروسية، فلا يبلغ التركي رتبة الأمير إلا وقد تهذبت أخلاقه، واشتد ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، فكانت تتضمن الفتوة الشجاعة، والإتيان بأعمال البطولة، والكرم، والسماحة، والعفو عند المقدرة، واحترام المرأة، ووفاء العهد، وحماية الضعفاء¹.

فالسultan عز الدين أيبك أحبّ شعبه، فأراد لهم أن يتصفوا بالمرورة والشجاعة، وحمى نساءهم من العار، وذلك بأن جعلهم ينظمون في جماعات الفتوة، فهذا أبو الحسين الجزار² يمدح الملك المعز الدين عندما أصدر أوامر بلبس سراويل الفتوة قائلاً:

[الرمل]

حَنَّ الْمَلِكُ الْمَعزُّ عَلَى الرَّعَايَا وَأَلْزَمَهُمْ قِوَانِينَ الْمُرُوءَةِ
وَصَانَ حَرِيمَهُمْ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَأَلْبَسَهُمْ سِرَاوِيلَ الْفَتْوَةِ³

من خلال ما تقدم يُلاحظ أنّ صورة الشجاعة التي رسمها الشعراء للسلطين الأتراك ظهرت من خلال الانتصارات والفتوحات التي خاضها السلطين ضد الفرنجة والتتار، فمدحهم الشعراء وأثنوا عليهم، وعبروا عن ذلك في أشعارهم حيث سطرّوا البطولات التي حققها أولئك السلطين أثناء تصديهم لأعداء الإسلام، بعواطف جيّاشة وصادقة، وامتداداً لصورة شجاعة السلطان تغنى الشعراء بقوة جيشه وشجاعته، وقدرتهم على هزيمة العدو، بالإضافة إلى تشجيع الناس على الالتحاق بنظام الفتوة والقيام بأعمال الفروسية.

(1) ينظر: أحمد أمين، الصلعة والفتوة في الإسلام، ص40، 39.

(2) هو جمال الدين أبو الحسين، يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي، الجزار، المصري، الأديب الفاضل، كان جزائرياً، ثم استترق بالمدح، وشاع شعره في البلاد، وتناقلته الرواة، وكان كثير التبذير، دُفن بالقرافة سنة (679هـ)، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 13/293؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/568؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/636.

(3) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1/487.

3. العدل

من الصور الإيجابية التي تناولها الشعراء في وصف سلاطينهم صفة العدل، وعلى الرغم من معاناة الشعب في العصر التركي حيث كان الفقر والمجاعة والظلم وتسلبت بعض الأمراء والحكام، إلا أنه كان هناك بعض السلاطين الأتراك يعملون لإقامة العدل في حكمهم بين الناس فلا يظلمون أحداً، ومنهم السلطان الظاهر بيبرس، والسلطان محمد بن قلاوون، والسلطان حسن بن قلاوون، وهذا ما ذكره

الشعراء في قصائدهم، فالقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يمدح الظاهر بيبرس: [الرجز]

يا مالك الدنيا الذي أضحي صلاحاً للأمم
يا من محاً بالعدل ما للظلم فينا من ظلم¹
وفي إحدى المقطعات مدح ابن أبي حجلة التلمساني السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فوصفه بأنه عادل في حكمه للناس، وهو مثل أبيه السلطان المنصور لا يظلم أحداً، ولم يَلْم يوماً في حياته

بذنب صغير اقترفه. [الرجز]

سلطاننا بالعدل في الأحكام لم يلمم بحمد الله يوماً باللمم²
مثل أبيه عادلاً في حكمه ومن يشابهه أبه فما ظلم³
وفي مقطوعة أخرى مدح ابن أبي حجلة السلطان الحسن بن قلاوون، واصفاً إياه بالحسن والإحسان والعدل، فحلّ الأمن والأمان في أرجاء البلاد، فلا خوف أبداً من اعتداء أو ظلم، فترى

الحمائم لا تخاف اعتداء من نسر أو عقاب. [الكامل]

وانظر إلى سلطاننا حسناً تجد ملكاً غداً بالعدل أفق بلادهِ
ما شئت من حُسنٍ ومن إحسان يسري الحمائم مع العقبان⁴

(1) العيني، عقد الجمان، 1/365؛ محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزّاهرة، ص180.

(2) اللّم: صغائر الذنوب، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (لم).

(3) ابن أبي حجلة، الديوان، 239، وقول " ومن يشابهه أبه فما ظلم " مثل يؤكد شبه الابن بأبيه وأصل هذا المثل قول روبة بن العجاج في مدح عدي بن حاتم الطائي: بأبه اقتدى عدي في الكرم ومن يشابهه أبه فما ظلم .

(4) ابن أبي حجلة، الديوان، ص271.

ومدح ابن أبي حجلة الملك الصالح بن الناصر محمد قلاوون¹، فوصفه بأروع الصفات، فهو الذي يُفرق شمل الظلم عن النَّاسِ بَعْدِلِهِ، وأجمع النَّاسِ على إِحْسَانِهِ، لما يمتاز به من العطاء الَّذِي عَمَّ البلاد، وأصلح بين العباد محققاً العدل بينهم.

[الطويل]

وَلَكِنْ عَلَى إِحْسَانِهِ النَّاسُ أَجْمَعُوا
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلصَّالِحِ مَوْضِعٌ²
يُفَرِّقُ شَمَلَ الظُّلْمِ عَنَّا بَعْدِلِهِ
وَصَالِحُ رَوْيِ الْأَرْضِ بَعْضُ نَوَالِهِ

وهكذا صوّر الشعراء عدل بعض السلاطين وأظهروهم بصورة مثالية تتصف بالعدل، ورفع الظلم عن النَّاسِ، وتحقيق الأمن والأمان، والإصلاح بين النَّاسِ، وقد تكون هذه الصورة غير واقعية رسمياً الشعراء لتعبير عن رغبتهم بتحقيق هذه الصورة على أرض الواقع.

(1) هو صالح بن محمد بن قلاوون، السلطان الملك الصالح صلاح الدين ابن السلطان الملك المنصور، تولى الحكم سنة (752هـ)، قال عنه ابن إياس "كان ملكاً عظيماً، ديناً خيراً، حسن السيرة"، مدة سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف، توفي سنة "761هـ"، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 156/16؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 199/10؛ الزركلي، الأعلام، 195/3.

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص 181.

4. حب العلم

لقد حظي الكُتَّاب والشعراء بتقدير علمهم وأدبهم من سلاطينهم الأتراك، فقد كان للسلاطين الأتراك دور في التشجيع على العلم ونشره، وأتى الشعراء على ذلك في أشعارهم:

فقد مدح الوردق¹ السلطان الملك الظاهر بيبرس، بأنه الملك الذي أحب العلم وأهله، فمن حبه للعلم قام ببناء المدرسة الظاهرية، وهذه المدرسة قصدها العلماء من شتى بقاع الأرض، فأصبحت قبلة للدارسين، ومحجاً لطلبة العلم، قال:

[الطويل]

مليك له في العلم حبٌّ وأهله فله حبٌ ليس فيه مَلامٌ
فَشَدَّهَا لِلْعِلْمِ مَدْرَسَةً غَدَا عراقُ إليها شَيْقٌ وشَامٌ²
وذكر سراج الدين المحار³ أن للسلطان حسام لاجين⁴ دوراً في نشر العلم وتعليمه للناس، فوصفه أبنته واسع العلم، أعطى الخلق الكثير من الأدب والمعرفة والنقل والنقد، وكان من أذكي الناس في القراءة والنحو، وظلّ يستزيد من العلم حتى أصبح يتقن الفصحى.

[البسيط]

أوفى الوردى أدباً محضاً ومعرفةً نقلًا ونقدًا وأذكى من قري ونحَا
لَمَّا تَفَرَّدَ فِي عِلْمِ الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ الْكِتَابَةِ حَتَّى أَلْكَنَ⁵ الْفُصْحَا⁶

(1) هو سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسين المصري، ولد سنة (615هـ)، شاعر مصر في عصره، كان كاتباً، له ديوان شعر كبير من سبعة مجلدات اختار منه الصفدي "لمع السراج"، وله نظم "درة الغواص"، توفي سنة (695هـ) بالقرافة، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 33/23؛ ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، 69/8؛ الزكلي، الأعلام، 63/5.

(2) العيني، عقد الجمان، 383/1؛ الروض الزاهر، 184.

(3) هو عمر بن مسعود بن عمر المحار نزيل حماة، الكناي، سراج الدين، له شعر حسن، نظم الموشحات، له مدائح في المنصور صاحب حماة، توفي في دمشق سنة (711هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 193/3؛ الزكلي الأعلام، 66/5؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين، 579/2.

(4) هو الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصور، كان مملوكاً للمنصور قلاوون، تسلطن بعد خلع الملك كتبغا المنصور سنة (696هـ)، وهو الحادي عشر من ملوك الترك، مدته سنتان، كان مهيب الشكل، موصوفاً بالفروسية، قُتل في قصره سنة (698هـ)، ينظر:

الصفدي، الوافي بالوفيات، 385/24؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 70/8، الزكلي، الأعلام، 238/5.

(5) الألكن: الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (لكن).

(6) سراج الدين المحار، الديوان، ص 147.

مدح ابن أبي حجلة السّطان النّاصر حسن بن محمّد قلاوون، وذكر صفاته التي تدل على سعة علمه، ودرايته في علوم متنوعة، فقد كان فقيهاً، وبلغاً، وكاتباً، وشاعراً.

[الطويل]

وَزَيْرٌ مَشِيرٌ كَاتِمٌ السَّرِّ كَاتِبٌ فُقَيْهٌ بَلِيغٌ شَاعِرٌ بِالْمَشَاعِرِ
لَئِنْ كَانَ حَبْرًا فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ فَأَوْرَاقُهُ مِنْ حَبْرِهَا فِي حَبَائِرِ¹

وبهذا تظهر صورة السلطان التركيّ في حبه للعلم، وتشجيع النّاس على طلبه، بالإضافة إلى فضله في بناء المدارس والمساجد ودور العلم، وكان السلطان نفسه على علم واسع بعلوم متنوعة.

(1) ابن أبي حجلة، الدّيان، 118، الحبر: الرجل العالم، ينظر: اللسان، ابن منظور، مادة (حبر).

5. الكرم:

من الصفات التي تحلّى بها السلاطين الأتراك: الكرم وكثرة العطايا، حيث تناول الشعراء ذلك في أشعارهم، وذكروا من كان كريماً منهم، ففي ذلك أنشد شهاب الدين محمود الحلبي قصيدة مدح فيها السلطان حسام الدين لاجين، وأشاد فيها بكثرة عطائه، فیده مبسوطة دائماً لا تنتهي أصابعه عن العطاء، تفيض على غيره دون ملل، فهو كحاتم الطائي لا بل هو أجود، وكان الأجدد والأولى أن يُضرب به المثل في الكرم والجود لا بحاتم.

[البسيط]

عطاء من ليس يثني فيض راحته
عن الندى سأم يوماً ولا ملل
من حاتم عدّ عنه واطّرح فيه
في الجود لا بسواه يضرب المثل
أين الذي برّه الآلاف يتبعها
كرائم الخيل ممن برّه الإبل¹

ومن صور الكرم مدح سراج الدين المحار السلطان حسام الدين لاجين فوصف كرمه كالسحاب المحمل بالماء، وكأنّ للرزق في يديه بابّ للعطاء، يفيض على كل من طلب العون، وبهذا مدح سراج الدين المحار السلطان حسام لاجين:

[البسيط]

فتى إذا سحّ صوب المزن سحّ له
جود متى منعت أدواره منحا
كان للرزق في كفيه بابّ ندى
فكلما أمه مسترفد فتحا²

وفي هذا المعنى مدح صلاح الدين الصفدي³ السلطان محمد بن قلاوون، فجعل من عطاياه وهباته للناس، سحبا تهمر، فتعم أرجاء الأرض بالخير والعطاء، فهذه العطايا الوفيرة، أحييت الكثير من الأسر الفقيرة، فيقول:

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 388/24.

(2) سراج المحار، الديوان، ص 146

(3) هو خليل بن أبيك بن عبد الله، الأديب صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، ولد في صغد سنة (696هـ)، ولع بالأدب، وكتب الخط الجيد، قال الشعر الحسن، وأكثر من النظم والنثر والترسل والتواقيع، صنف "الوافي بالوفيات" في ثلاثين مجلد، و"أعوان النصر في أعين العصر" في ست مجلدات، وتوفي في دمشق سنة (764 هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 87/2؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 241/5؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، 290/1.

[الطويل]

وما هبأثك في يوم النّوال ندىً
لكنّها سُحِبَ تَهْمِي وتَسْجِمُ
تجوّدُ بالصّدقاتِ الوافراتِ فكمْ
أحيّت عطاياك من أودى به العدم¹
ومن العطايا التي كان يهبها السلاطين للنّاس، نفقة العساكر ففي سنة (698هـ) أنفق السلطان
الناصر على العساكر نفقة عامة، فمدحه ببيرس المنصوري²، واصفًا إياه بأنّه مصدر النور العالي
لأهل الرفعة والشرف والعزة والكرم، وواهب المال لغيره، حتى لم يبق أي شيء من المال في يده، من

[البسيط]

فرط إنفاقه على النّاس، فلا نرى يديه إلّا وهي تُعدّ المال للنّاس.

الناصرُ الملكُ العالي المنار إذا
أهل الفخار سموا للمجد والجود
الواهبُ المال لم تعلقُ بساحته
إلّا بعدّ الأيادي غير معدود³
ويمدح ابن أبي حجلة السلطان حسن بن الناصر قلاوون، فيصفه بالكرم والسخاء، مُشبّهًا أنامل
يديه التي تمدّ الناس بالعطاء والخير الوفير، بأنّها عشرة خلجان التي تستمد مياهها من مياه البحر
التي لا تنقطع، ومن مظاهر كرمه أنّه يشتهر بإكرام النّزلاء الوافدين إلى بلاده، ويكرم الحجاج الذين

[الطويل]

يمرون من الطرق البريّة والبحريّة، ويتفوق عن الفرسان بجوده ونجدته.

كريمة له في راحتيه أنامل
كعشرة خلجان تُمدُّ من البحر
شهيرٌ بإكرام النزيل وكلّ من
يمرُّ من الحجاج في البحر والبر
يزيد عن الفرسان جودًا ونجدةً
إذا قيل زيد الخيل أفرس من عمرو⁴

(1) الصفدي، أعيان العصر، 103/5.

(2) هو ببيرس المنصوري الخطائي الدوادر، ركن الدين، مؤرخ من أمراء مصر، كان من مماليك المنصور قلاوون، ولاء المنصور الكرك، ثم صار دوادار، ثم ولاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة مصر، له تصانيف "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" و"التحفة الملوكية في الدولة التركيّة"، توفي سنة (725هـ)، العسقلاني، الدرر الكامنة، 509/1؛ الزركلي، الأعلام، 80/2؛ عمر كحالة، معجم المؤلفين، 452/1.

(3) العيني، عقد الجمان، 455/3.

(4) ابن أبي حجلة، الديوان، ص 121، زيد الخيل: هو الصحابي الجليل زيد بن مهلهل أبو مكنف الطائيّ النبهاني، المعروف بزيد الخيل، ولما أسلم سماه الرسول صلى الله عليه وسلم "زيد الخير"، كان من فرسان العرب، الصفدي، الوافي بالوفيات، 25/15، وعمرو: هو عمرو بن معدي كرب بن عبد الله بن عمرو بن عاصم، أحد الفرسان الأبطال، توفي سنة (21هـ) ابن كثير، البداية والنهاية، 119/7.

ومن مظاهر الكرم، كان السلاطين الأتراك يوزعون الصدقات على الناس صدقة عن أمواتهم، فقد ورد في "الألطف الخفية من السيرة الأشرفية"، أن السلطان الأشرف خليل كان يوزع الصدقات عن روح والده، فبين الشاعر أن هذه الصدقات تعود بالنفع الكبير على الميت، ويقصد هنا والد الأشرف، لأنها رحمة مستمرة للعبد، وصدقة جارية ثوابها عظيم، وهذا بفضل ابنه البار الذي نال لقب الأشرف وذلك من الله تعالى، وأعطاه ملكاً واسعاً، وفي ذلك قيل.

[الطويل]

ففي كُلِّ أرضٍ رحمةٌ مستمرةٌ عليه وِبَرٌّ دائمٌ ليس يُتركُ
وذلك بابنِ شَرَفِ اللهِ اسمَه وأعطاه ما لم يُعطه مُتَمَلِّكٌ¹

ومن الصور المتعلقة بكرم السلاطين، تملك القلاع والحصون والمدائن، فعندما فتح السلطان الظاهر بيبرس البلاد وانتصر على التتار وفتح قيسارية وأرسوف وعكا قام بتمليك هذه البلاد للأمرء، وقسمها عليهم، تكراً منه، ولم يبق لنفسه شيئاً، غير أن اسمه بقي مخلداً في كُتُب السير، لما قام به من بطولات، حيث سُميت الثغور التي فتحها باسمه² وفي ذلك قيل:

[الخفيف]

فتى جعلَ البلادَ من العطايا فأعطى المدنَ واحتقرَ الضياعا
سمعنا بالكرامِ وقد أَرانَا عيانا ضعف ما فعلوا سماعا
إذا فعلَ الكرامِ على قياسِ جميلاً كان ما فعل ابتدعا³

وحينما تكرم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بتمليك القلاع والحصون، قام بتوزيعها على الأمرء، ولم يبق لنفسه شيئاً منها، ولكن صنيعه هذا بقي مخلداً تذكره السير وكُتُب التاريخ، فكم رغبت الغيوم المحملة بالمياه أن تكون بالعطاء كراحتيه التي اشتهرت العطاء والكرم ولكن لم تصل هذه الغيوم إلى ما وصل إليه السلطان من عطاء وكرم، فهو لا وجود ولا يتكرم إلا بالكثير، فقد ملك الحصون الشامخات وجاد بها، وهذا ما ورد في الألطف الخفية:

(1) عبد الله السعدي، الألطف الخفية، 3/19-20.

(2) ينظر: العيني، عقد الجمان، 1/398.

(3) المصدر نفسه، 1/400.

[الكامل]

مُنْكَرَمٌ يَهَبُ الْحِصُونَ مَعَ الْقَلَا
وَيَرَى لَهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ مَخْلُودَا
كَمْ رَامَتِ السُّحْبُ الْهَوَاطِلُ أَنْ تَكُو
وَمِنَ الْحِصُونَ الشَّامَخَاتِ لَهُ الْعَطَا
ع بَكَلْمَا فِيهَا وَمِنْهَا
وَمَعْوُضَا عَنْهُ وَعَنْهَا
ن كِرَاحَتَيْهِ فَلَمْ تَكُنْهَا
ء يُعَابُ جُودٌ لَمْ يَزِنْهَا¹
ومدحه الشعراء على سعة كرمه وجوده، فانه تعالى جمع الصفات الحميدة التي في الخلق كلهم وجعلها في شخص واحد ألا وهو شخص السلطان الأشرف خليل، ويدعو الشاعر الله، سبحانه وتعالى، أن يبقيه على العرش لأنه هو الوحيد الذي يُعاون الفقراء ويساعدهم، فقد تربي على الجود والكرم،

[البسيط]

ويتساءل الشاعر هل أحد من الخلق يجود مثله؟

سُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ الْجَمِيعَ بِوَاحِدٍ
وَبِهِ تَخَصَّصَ وَخَدَهُ مُتَقَرِّدًا
فَاللَّهُ يُبْقِيهِ لِمَالِكٍ مَا لَهُ
يُرِي عَلَى جُودِ الْأَكْرَامِ جُودَهُ
وَالْأَشْرَفُ السُّلْطَانَ ذَاكَ الْوَاحِدُ
مَا إِنْ لَهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ جَادُ
أَحَدٌ سِوَاهُ مُسَاعِفٌ وَمُسَاعِدُ
أَوْمِئْتُهُ فِي ذِي الْبَرِيَّةِ جَائِدُ²
وقد رفض بعض السلاطين أخذ الهدايا من أحد حتى لا يقعوا في الشبهة وفي قفص الإتهام، ومما ذكر في ذلك، أنه عندما ختن الظاهر بيبرس ولده الملك السعيد ناصر الدين بركة³، مع مجموعة من أبناء الأمراء الكبار، فلم يقبل الهدايا من أحد⁴، فمن مظاهر كرمه أنه يهدي المدن والقلاع والحصون للعسكر الذين انتصروا في المعارك ضد الأعداء، لكنه يترفع عن أخذ الهدايا عدوًّا عمدًا كان يفعله غيره من الملوك في مثل هذه المناسبة من تكليف الناس.

(1) العيني، عقد الجمان، 36/3.

(2) عبد الله السعدي، الألفاظ الخفية من السيرة الأشرفية 30/3

(3) هو السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي، محمد المدعو بركة خان ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي، ولد في القاهرة، تملك بعد أبيه سنة "676هـ"، الخامس من ملوك الترك، كان شابًا، كريمًا، مليحًا، حسن الطباع، توفي سنة "678هـ"، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 290/13؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 223/7؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 632/7.

(4) ينظر: العيني، عقد الجمان، 376/1.

[الكامل]

يهبُ البلادَ مع الممالك
وبالحصونِ وما هنالك
قبولِ هديّةِ تلك المسالكِ
ئهِ يرضى بذلك¹

ملكٌ تَعوّدُ أَنّه
ويجوّدُ بالمدينِ العظامِ
حاشاهِ يَسُنكِ مِن
أو أَنّه مع جودهٍ وعطا

وفي الختام تظهر صورة الكرم للسلطين الأتراك بصور متنوعة، فجعلهم الشعراء سُحابًا، وبحرًا،
وسيلًا، لكثرة كرمهم، وقاموا بتوزيع الصدقات والهبات على النَّاس، ووزعوا الحصون والقلاع والمدن
على الأمراء.

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزاهر، ص214.

6. التسامح والعفو:

من الصور الإيجابية التي تحلّى بها بعض السلاطين في الدولة والتركية، التسامح والعفو في الكثير من المواقف، ففي سنة (661هـ) وصل مجموعة من التتار البلاد المصرية طالبين الأمن والأمان من السلطان الظاهر بيبرس، مُعلنين إسلامهم، فأعطاهم السلطان الأمان¹، وفي ذلك يقول

محبي الدين بن عبد الظاهر: [الرجز]

يا مالِك الدنيا الذي	أضحى صلاحًا للأمم
خافوا سـيوفك أنها	ستسـوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهم	يأوون منه إلى حرم
أعطيتهم ما للمؤلفة	القلوب من القسَم ²

وعندما دخل السلطان بيبرس قيسارية في سنة (675هـ) وأقام فيها أسبوعًا، أنته وفود من الروم يطلبون العفو والصفح عنهم، فعفا عنهم، وأعطاهم الأمن والأمان، فكيف لا يصفح عنهم وهو واسع

الحلم والكرم، وفي ذلك قيل: [الطويل]

أنته وفود الروم والكل قائل	أيناك تعفو عن كثير وتصفح
فأوسعهم حلمًا، وأولاهم ندى	فأمسوا على أمنٍ ومن فأصبخوا ³

وفي سنة (679هـ) خرج شمس الدين سُنقر الأشقر⁴ نائب بلاد الشام من دمشق بعسكره لقتال العسكر الذين خرجوا من مصر وعلى رأسهم الأمير علم الدين الحلبي⁵ مع عساكره، وعندما وصلوا دمشق التقى الجمعان واشتد القتال، وكان النصر للأمير علم الدين الحلبي وجمعه، فكتب الأمير

(1) ينظر: العيني، عقد الجمان، 1/364.

(2) المصدر نفسه، 1/365.

(3) المصدر نفسه، 2/161.

(4) هو سنقر الأعرس أو الأشقر المنصوري، شمس الدين، أحد الأمراء في الدولة التركية، نائب السلطنة على الشام، وتولى الوزارة في عهد السلطان لاجين في رجب (696هـ)، وتوفي سنة (709هـ)، العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/177.

(5) علم الدين سنجر الحلبي، نائب قطز على دمشق، سجنه الظاهر وأطلق سراحه، ثم سجنه المنصور قلاوون فترة، وأطلقه الأشرف خليل، توفي سنة (692هـ)، ابن كثير، البداية والنهاية، 13/334.

الْحَلْبِيِّ إِلَى السُّلْطَانِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ يَزِفُ لَهُ خَبْرَ النَّصْرِ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مَنْ أَسْرَ مِنَ الْأَمْرَاءِ ،

فَعَامَلَهُمُ السُّلْطَانُ مَعَامَلَةً حَسَنَةً وَعَفَا عَنْهُمْ¹ ، وَفِي ذَلِكَ قِيلَ : [البسيط]

وَسِعَتْ عَوَاطِفُكَ الْجُنَاةَ بِأَسْرِهِمْ وَأَفْأَتَتْ كُؤُلًا مِنْهُمْ عَثْرَاتِهِ

وَجَزِيَّتَ مَرْتَكِبِ الْإِسَاءَةِ مِنْهُمْ الْحَسَنَى فَأَصْبَحَ شَاكِرًا زَلَاتِهِ²

وَيَمْتَدِحُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلْبِيُّ السُّلْطَانَ حَسَامَ لَاجِبِينَ حَيْثُ كَانَ مَثَلًا فِي التَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ ، فَقَدْ

أَحَاطَ النَّاسَ بِسُورٍ مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَحْمِيهِمْ ، وَعَلَى أَعْدَائِهِ ظُلْمٌ مِنَ الْعَذَابِ ، فَيَعْفُو

وَيَصْفَحُ عَلَى مَنْ أَسَاءَ مِنْهُمْ ، حَتَّى لَوْ جَهِلُوا ذَلِكَ ، فَالْحَلْمُ مِنْ طَبَعِهِ : [الطويل]

أَحَاطَ بِالنَّاسِ سُورًا مِنْ كِفَالَتِهِ ظَلُّ لَهُمْ وَعَلَى أَعْدَائِهِ ظُلْمٌ³

يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَعْفُو عَنْ مَسِيئَتِهِمْ حَلْمًا وَيَصْفَحُ عَنْهُمْ إِنْ هُمْ جَهِلُوا⁴

مِنْ خِلَالِ مَا تَقَدَّمَ نَجِدُ أَنَّ بَعْضَ السُّلْطَانِينَ الْأَتْرَاقِ تَحَلَّوْا بِصِفَةِ التَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ ، فَنَرَاهُمْ يَعْفَوْنَ

وَيَصْفَحُونَ عَنْ مَنْ أَسَاءَ لَهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ إِذَا جَاءُوا إِلَيْهِمْ طَالِبِينَ الْأَمَانِ ، وَيَعَامَلُونَ أَسْرَاهُمْ مَعَامَلَةً حَسَنَةً ،

وَيَقْدِمُوا الْعَوْنَ وَالْحِمَايَةَ لِلرَّعِيَّتِهِمْ .

(1) ينظر: العيني، عقد الجمان، 242/2 و 243.

(2) المصدر نفسه، 243/2.

(3) الظل: من الظلة: في التنزيل العزيز " فأخذهم عذاب يوم الظلة" لأن الله بعث غمامة حارة أطبقت عليهم وهلكوا تحتها،

ابن منظور، اللسان، مادة (ظل)

(4) الصفدي، أعيان العصر، 173/4.

7. الإلتزام بالدين ونصرته:

لقد كان الدافع للحروب الصليبية دافعاً دينياً، إذ ترك النزاع الديني بين الشرق والغرب أثراً في نفوس الناس، فدخل الكثير من التتار في الإسلام، وانتشر بين صفوفهم بسرعة على عكس النصرانية التي انتشرت بشكل قليل، وكان السلاطين الأتراك يلتزمون بتعاليم الإسلام، ويحرصون على نشره، فكان للمظاهر الدينية أثر في حياة الشعوب¹.

يقول سراج الدين الوراق في مدح السلطان الظاهر بيبرس، صاحب الملك العظيم الذي يمتد إلى أبعد مكان في الهند والصين، فما كان اسمه الظاهر حتى يظهره الله تعالى على نصرة الدين الحق.

[السريع]

يا حبّذا الملك الذي ملّكهُ
ما سمّي الظّاهرُ إلا وقَدْ
أظهرهُ اللهُ على الدّين²
وهذا شمس الدين الإربلي³، يمدح السلطان المنصور قلاوون، ويبين مدى حرصه على نشر الإسلام وإلزام الناس به، فمن كان يمشي في الحرام وغير ملتزم بالدين، أصبح مقيماً في المسجد خوفاً من عقوبة السلطان، لأنّه أقام أمر الله بين العباد راجياً ثواب الله تعالى، فقد جمع بين العطاء والعدل والصلاة والوصل.

[الكامل]

مَنْ كان يَدْخُلُ في الحرام وَيُعْتَدِي
وأَقَمْتَ أمرَ الله بين عباده
أضحى بخوفك قيماً في المسجد⁴
يا جامعاً بين النّوال وعدّله
ترجو ثوابَ الناسك المتعبّد
وصلاته وصلاته للمُجْتَدِي⁵

(1) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 3/ 607 و608.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 10/344.

(3) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي، برع في الفضائل والآداب، له كتاب "وفيات الأعيان في أبناء الزمان"، (ت681هـ)، ينظر: ابن العماد، شذرات الذهب، 7/647.

(4) يَدْخُلُ: السير في الليل، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (دخ)

(5) العيني، عقد الجمان، 2/352.

وعندما فتح الملك المنصور قلاوون طرابلس مدحه بدر الدين المنبجي، قائلاً: إنَّ الملك المنصور بهذا النَّصر العظيم الذي حققه رفع من شأن الإسلام والمسلمين، وكسر شوكة دولة الشرك، رافعاً راية

[البسيط]

التوحيد مقللاً من شأن دين الصُّلب المسيحيّ.

الإسلام وانهَدَّ دينُ الشرك والصُّلْبِ¹

بالسيِّد الملك المنصور شيدَ على

أصابَ بالخفضِ دينَ الرجسِ والصُّلْبِ²

يا رافعاً علمَ الدِّينِ الحنيفِ ومنْ

ولمَّا تولى فيها السُّلطان لاجين السلطنة (696هـ)، نظم أحد الشعراء مادحاً السُّلطان، فبهتمته

وشجاعته نُصر الإسلام، وكسَّر أنوف الملوك الطوال الأقبياء، ووصل إلى أعلى مراتب الشرف، أمَّا

[البسيط]

كتبغا³، فقد مات خائفاً من الموت مُسالماً.

تزعزع من شم الملوك الشناخب⁴

لقد نُصر الإسلام بالملك الذي

الذي رقى بسماءِ المجد أعلى المراتب

حُسام الهدى والدِّين منصوره

أتت إليه أسود الجند من كل جانب⁵

مضى كتبغا خوف الحمام وقد

ويُبين شهاب الدِّين محمود الحلبيّ التزام السُّلطان حسام لاجين بالدِّين ونصرته له، فيقول له: يا كافلاً

الإسلام وراعيه، لا أحد من قبلك قام هذا المقام، فلك الفضل في نصرته الدِّين من الأعداء فهم

كالمرض الخبيث، وأنت الذي غضبت للإسلام غضبة الثائر، فأنت ملتزم بالشرع وتمسك بأحكامه

وقضائه، ويا راعي الإسلام لقد قُمت بحماية سرب المسلمين ومنعت كلاب الشُّرك من الاقتراب والنيل

منهم، وأجاد الشاعر الوصف حيث شبه المسلمين بسرب من الطيور، وأمَّا الأعداء فشبههم بالكلاب

التي تتبجح دون أن تفعل شيئاً.

(1) العيني، عقد الجمان، 383/2.

(2) المصدر نفسه، 385/2.

(3) هو كتبغا المغلي المنصوري زين الدين الملك العادل، تولى الحكم سنة، (694 هـ) حتى (696 هـ)، كان أسمر، قصير، دقيق الصوت، من عسكر هلاكو، كانت دولته سنتين، توفي سنة (702 هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 262/3؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 27/14، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص3110.

(4) الشناخب: مفردا الشنخب، ومعناه الطويل من الرجال، ينظر: أحمد رضا، معجم متن اللغة، مادة (شنج)

(5) العيني، عقد الجمان، 361/3.

[الكامل]

يا كافلَ الإسلامِ قبلكَ لم يَقم
أقسمتَ لو لم تَشَفِ هذا الدِّينَ
وَعَضِبْتَ للإسلامِ عَظَبَةً تَأِيرِ
قاضٍ حليمٍ ثابتٍ مُتَمَسِّكٍ
يا راعيَ الإسلامِ صُنْتَ السَّرْبِ أن
مدح ابن أبي حجلة السلطان الناصر محمد قلاوون، مشيرًا إلى تقواه، وورعه، وخافة الله في
رعيته، حيث كان يصوم شهر رمضان في أيام شديدة الحرارة، فسعى لهداية الخلق كان ظل له يخفف
عنه شدة الحرّ، وعلى الرغم أنّه كان صائمًا، فقد خاض الحرب مع الأعداء وأصابهم بأسه.

[الكامل]

سلطاننا ما زالَ أهلاً للتقى
إن كانَ في الحرِّ الشديدِ صيامه
في مثلِ هذا الشهرِ باتَ مظفراً¹
يقول صفي الدين الحلبي³ مخاطبًا السلطان الملك الناصر محمد: لقد قدّمتَ لمادحيك أنقى
الخلائق حيث يقصد الشاعر السلطان نفسه، لشدة صفائها لو أنّها من ماء البحر لطاب شربها، فأنت
لا تكون إلا جوار أناس حسان الخلق مشرقي الوجوه لفرط إحسانهم، وعلى واصلك للناس والتزامك
بالدين والصلاة مواظبًا ومستمرًا .

[الكامل]

وبدلتَ للمُدّاحِ صَفوَ خلائقِ
فرأوكَ في جنبِ النُّصارِ مَفْرَطًا⁴
لو أنّها للبحرِ طابَ مشاربًا
وعلى صلاتِكَ والصلاةِ مُواظبًا⁴

(1) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص137، 138، السرب: القطيع من النساء، والطير، والظباء، والبقر.

قيل هو آمن في سربه، أي في قومه، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (سرب).

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص330.

(3) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن نصر السنبسي الطائي، برع في فنون الشعر كلها، وتعلّم المعاني والبيان وصنّف فيها، اشتغل في

التجارة ومدح الملوك والأعيان، (ت752هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 369/2؛ الزركلي، الأعلام، 17/4.

(4) صفي الدين الحلبي، الديوان، ص98، النصار: الصافي، الخالص من كل شيء، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (نصر).

ومن الصور التي تظهر اهتمام السلاطين بالإسلام وتعاليمه، والحرص على أداء أركانه، حيث كانوا يشرفون بأنفسهم على قوافل الحج والعمرة ويؤمنون لهم الطريق، فهذا السلطان الأشرف خليل قلاوون كان يؤمن وفود الحجاج، ورد في "الألطف الخفية" شعر فيه دعاء للملك بأن يطيل الله تعالى من عمره، لما قام به من تيسير طريق الحجاج وتحقيق الأمن لقوافلهم، فتلاقت وفود الشام ومصر معاً وكانت تحت رعايتك فأروا عظيم صنّعك حيث حققت لهم الأمن والأمان في كل صحراء خالية مقفرة

مرّوا بها:

[الخفيف]

يا مليغاً أطال ربّي عمّره	لك حج في كلّ عام وعمّره
بسبيل يسّـرته للبرايـا	وسبيل بالأمن سهّلت وعـره
فتلاقى ركب الشام ومصر	كلّ ركب قد شدّ صوتك أزره ¹
ورأوا من عظيم صنّعك أمنا	وأمانا في كلّ بيداء قفّره ²

وكان السلاطين والأمراء ينتهزون الفرصة في شهر رمضان للقيام بأعمال الخير والإحسان للفقراء والمحتاجين، وجرت هذه العادة حتى أصبحت تلك الأعمال بمثابة رسوم تقليديّة تُدفع للفقراء بمناسبة الشهر الفضيل³، فهذا ابن نباتة يُهنئ بالصوم ويمدح أحد الحكام، ويشير أنّ هذا الممدوح يفطر أفواه الفقراء والجائعين ويكسب الأجر، وفي المقابل يفطر أكباد أخرى، وهم الحاسدون لهذا الممدوح فيجعلها تنفطر ألماً.

[البسيط]

هُنّـت بالصوم السعيـ	د، وألف صوم بعـده
في نعمةٍ وسيـادةٍ	تسع الوليّ وضـده
هـذا يفطرُ فـاه أو	هـذا يفطرُ كـده ⁴

(1) الأزر: القوة والشدة، ابن منظور، اللسان، مادة (أزر).

(2) عبد الله السعدي، الألف الخفية، 52، 53/3.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 333/1.

(4) ابن نباتة، ديوانه، ص 169.

يُهنىء ابن نباتة أحد الملوك بحلول شهر رمضان ويمدحه بالسماحة والندى، ويمنح المنن للفقراء، فيفطر الأفواه، وفي الوقت نفسه يفطر أكباد الحُساد.

وحرّص السلاطين الأتراك على الحفاظ على الأخلاق العامّة فكانوا يصدرون أوامر بإغلاق الملاهي وأماكن شُرب الخمر، ويأمرون بحبس الزناة، وبإبطال شُرب الخمر¹، وظهر في أيام الأتراك منافس قوي للخمر وهو الحشيش الذي انتشر في مجالس اللهو والفسق، وفي الأماكن العامّة والخاصة².

ففي سنة (664هـ) أمر السلطان بيبرس بإبطال شرب الخمر ومنع الحشيش، وجعل الحدّ على ذلك الصلب، كان قد أمسك بأحدهم وهو سكران فصلبه وأقام الحدّ عليه³.

قال ابن دانيال الموصلي: كان الحكم على شارب الخمر خفيف الأذية لا يتعدى الجلد، فلمّا أصبح الحدّ هو الصلب، يقول إنّ هذا تجاوز الحدود كلها، فالشاعر يتذمر من الحُكم القاسي الذي أمر به السلطان من أجل منع شُرب الخمر.

[الطويل]

لَقَدْ كَانَ حَدُّ السَّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ خَفِيفَ الْأَذَى إِذْ كَانَ فِي شَرَعِنَا جَلْدًا
فَلَمَّا بَدَأَ الْمَصْلُوبُ قَلْتُ لِصَاحِبِي: أَلَا تُبِّ فِإِنْ الْحَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ⁴
يقول ابن دانيال الكحال: بعدما منع السلطان شرب الخمر، يقول أنّ إبليس قد مات بلا رجعة، فرجله

[الخفيف]

لم تطأ مصر بعد الآن، وأصبح موطنه خاليًا منه. مَاتَ يَا قَوْمَ فِجَاءَ إِبْلِيسُ
وخلّا منه ربعه المأنوس⁵

(1) ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، 608/3.

(2) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص450.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 343/10.

(4) الكتبي، فوات الوفيات، 245/1، الصفدي، الوافي بالوفيات، 343/10.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، 344/10.

وهذا ابن النقيب يُصوّر لنا هروب إبليس مصر، عندما منع السلطان بيبرس شرب الخمر وأكل الحشيش، حيث أصبح الحال لا يعجبه، فلا ماء ولا أكل له، ففضل الهروب على البقاء.

[الخفيف]

منع الظاهر الحشيش مع الخمر
قال: مالي وللمقام بأرضي
رِ قَوْلِي إبليس من مصر يسعى
لم أمتع فيها بماء ومرعى¹

وتعليقًا على ما سبق، نجد أنّ السلاطين الأتراك حرصوا على الدفاع عن الدين الإسلامي، ومحاربة الأعداء، حيث نصرُوا الإسلام والمسلمين، وحافظوا على أداء فرائض الإسلام من صوم وصلاة وحج، وقاموا بالقضاء على مظاهر الفساد، فمنعوا شرب الخمر والحشيش، وغيرها.

(1) الكتبي، فوات الوفيات، 245/1.

8. محبة النَّاسِ لِلسُّلْطَانِ:

عبّر الشعراء في عصر دولة التُّرك عن محبة النَّاسِ لبعض السلاطين، بعد أن عاشوا حياة صعبة في حكم غيرهم، وصوَّروا هذه المحبة بصور متنوعة.

فعند مَرَضِ السلطان يحزن عليه النَّاسُ، وعندما يتعافى يفرحون له ، في سنة (696هـ) لعب الملك المنصور لاجين الكرة بالميدان، فتعثر وسقط من على ظهر الفرس، فتهشم جسمه وانكسرت يده وبعض أضراره¹، ولمَّا تعافى قال فيه شمس الدِّين محمَّد المعروف بابن البياعة² معبرًا عن مدى

الفرحة والبهجة التي عمَّت البلاد بل الكون بأسره بتلك البشرى السعيدة . **[البسيط]**

فمصر والشام كلُّ الخير عمَّهما وكُلُّ قُطْرٍ عَلت في التَّبَاشِيرِ
فالكون مبتهجٌ والخَلْقُ مبتسِمٌ والخيرُ متصلٌ والدِّينُ مجبورٌ³

وقال علاء الدِّين الوداعي⁴ أبياتًا، يُبشِّر النَّاسَ بقدوم السلطان لاجين حيث حلَّت عليهم البركة،

بقدومه جاء غيث عظيم بعدما تأخر عليهم. **[السريع]**

يا أيها العالمُ بُشراكم بدولة المنصور ربِّ الفخار
فالله قد باركَ فيها لكم فأمطرَ الليل وأضحى النهار

(1) ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 72، 73/8.

(2) لم أعثر على ترجمته.

(3) العيني، عقد الجمان 398/3.

(4) هو علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد، الكندي، الوداعي، علاء الدين، ويقال له ابن عرفة، ولد سنة (640هـ)، اشتغل في الآداب

فمهر في العربية وأجاد الشعر، كان يهجو كثيرًا ، دخل ديوان الانشاء في آخر عمره، وكان شديد التشيع، وتوفي سنة، (716هـ)، ينظر:

الكتبي، فوات الوفيات، 98/3؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 130/3؛ الزركلي، الأعلام، 23/5.

وعندما تولّى السلطان الكامل سيف الدّين شعبان¹ السّلطنة، وجلس على تخت المُلك في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر في سنة (746هـ)، تغنّى الشعراء بقدومه²، ومنهم الأديب جمال الدّين ابن نباتة³، فيبارك بتوليه السلطنة، ويعبر عن فرحته العارمة بقدومه، فالدهر يبتهج بمجيئه الذي كان في شهر ربيع الآخر، ففي هذه الأبيات يتلاعب الشاعر بالألفاظ، وقد ورّى بلفظه (شعبان) فهو شهر شعبان وهو المعنى القريب الظاهر غير المقصود، في حين أنّ المعنى البعيد الخفيّ هو اسم السلطان شعبان.

[مخلع البسيط]

جَبِينُ سَلْطَانِنَا الْمُرْجَبِي
مُبَارِكُ الطَّالِعِ الْبِدِيعِ
يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ إِذْ تَبَدَّى
هَلَالُ شَعْبَانَ فِي رِبِيْعِ⁴

رجع بعض سلاطين الدولة التركيّة للسلطنة بولاية ثانية وثالثة، ومنهم السلطان الناصر محمّد بن قلاوون، والسلطان الناصر حسن بن قلاوون، والسلطان الصالح أمير حاج بن شعبان⁵. فعندما رجع الناصر محمّد قلاوون إلى ملكه سنة (698هـ) ثانية، مدحه علاء الدّين الوداعيّ، ففي عهده ازدهرت الحياة، وأصبحت دولة التّرك مشرقة كالشمس حيث عمّ الأمن والأمان، وكانت عودته للحكم كعودة الملك سليمان لعرشه، فالملك سليمان سلب منه ملكه، وكذلك الملك الناصر محمّد بن قلاوون عاد إلى ملكه بعد أن سلب منه زمناً.

(1) هو شعبان بن محمد بن قلاوون الملك الكامل بن الناصر بن المنصور، تولى السلطنة سنة (746هـ)، هو السابع عشر من ملوك التّرك بالديار المصرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، لقب بالملك الكامل، قُتل سنة (747هـ)، ينظر: الصّفي، الوافي بالوفيات، 153/16؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 191/2؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 95/10.

(2) ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 95/10.

(3) هو محمّد بن محمّد بن الحسن الجذامي، الفارقي، المصري، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباتة، ولد في القاهرة سنة (686هـ)، مهتر في النظم والنثر والكتابة، له ديوان شعر، و"سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" و"سجع المطوق" و"سلوك دول الملوك وتوفي سنة (768هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 216/4؛ الزركلي، الأعلام، 38/7.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 95/10.

(5) هو الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان، وهو الرابع والعشرون من ملوك التّرك بالديار المصريّة، تسلطن في سنة (783هـ) وهو صغير لم يدرك الحلم، آخر سلاطين الدولة القلاوونية في مصر والشام، قام الأتابكي برفوق بتدبير أمره وأمور الدولة، خلع سنة (784هـ)، ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 168/11؛ الزركلي، الأعلام، 13/2.

[الرجز]

المَلِكُ النَّاصِرُ قَدْ أَقْبَلَتْ دَوْلَتُهُ مُشْرِقَةَ الشَّمْسِ
عَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ مَا عَادَ سَلِيمَانُ إِلَى الْكُرْسِيِّ¹

وفي سنة (709هـ) عاد السلطان الناصر محمد إلى السلطنة للمرة الثالثة، أنشد شمس الدين

[الطويل]

الداعي² هذه الأبيات:

تَهَنَّأَتِ الدُّنْيَا بِمَقْدَمِهِ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ الْآفَاقُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَأَمَّا سَرِيرُ الْمَلِكِ فَاهْتَزَّ رِفْعَةً لِيَبْلُغَ فِي التَّشْرِيفِ قَصْدًا وَمَطْلَبًا
وَتَأَقَّ إِلَى أَنْ يعلُوَ الْمَلِكُ فَوْقَهُ كَمَا حَوَى مِنْ قَبْلِهِ الْأَخَ وَالْأَبَا³

يصور الشاعر في هذه الأبيات أن الدنيا ابتهجت فرحًا وسرورًا بعودة السلطان لتوليهِ العرش، فأتاه الناس من كل فج عميق للاحتفال بهذه المناسبة، حتى إن سرير العرش اهتز، إجلالًا لهذا السلطان صاحب المجد، والرفعة، والشرف، وجعل الشاعر من هذا السرير إنسانًا يتشوق لجلوس الملك فوقه، فقد جلس عليه من قبل الأخ والأب، فأسرة قلاوون حكمت البلاد، كلهم أصحاب رفعة وشرف.

وقال شمس الدين الداعي أبياتًا أخرى يتغنى فيها بعودة السلطان الناصر، فقد عاد الملك إلى وطنه منصورًا، ورجوع محمد قلاوون إلى عرشه أفرح الرسول، محمد صلى الله عليه وسلم، فعودته إلى وطنه كعودة السيف إلى غمده، وكالورد الذي عاد إليه الندى في الصباح الباكر، وهذا يشير إلى مدى فرحة وبهجة الناس برجوع السلطان إلى سلطنته، فالحق عاد إلى أصحابه، بعدما كان مغتصبًا:

(1) رائد عبد الرحيم، علاء الدين الوداعي حياته وشعره، ص74؛ الوافي، 4/357.

(2) لم أعثر على ترجمته

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/9.

[الكامل]

الملك عاد إلى حماه كما بدا
وإيابه كالسيف عاد لغمده
الحق مُرتجع إلى أريابه
ومحمد بالناصر سرّ مُحمدا
ومعاده كالورد عاوده الندى
من كف غاصبه وإن طال المدى¹

وعندما ركب السلطان الناصر محمد في موكب ملكه، مدحه الشعراء منهم شهاب الدين العززي، الذي تغنى بعودة السلطان ورحب بقدمه، فهو أوفى الملوك عدلاً وإنصافاً، فعودته للعرش كانت بشرى سارة للعباد، جعلت أيامهم أعيادا.

[الخفيف]

عاد للملك صاحب الملك عادا
مرحباً مرحباً بأوفى ملوك الـ
أي بشرى بعودة الملك النا
عودة جدت لنا هناء وأفرا
ثم أبدى النعم لنا وعادا
أرض عدلاً في ملكه وسادا
صر سرّت في الخافقين العبادا
حا وردت أيامنا أعيادا²

وهنا الشعراء السلاطين بزفافهم حيث كان تدق الطبول وتصدح الزغاريد، وتقام حفلات الرقص

والغناء³، فهذا ابن أبي حجلة يهنئ الملك الأشرف شعبان بن حسين، قائلاً:

[الوافر]

هناءً بالهناءِ مدى الليالي
زفافاً إن بدت فيه خوند⁴
زفافاً رشّ ماء الورد فيه
ولاح الأشرف السلطان فيه
وبالفرج المُقيم على التوالي
تجلّل بالمسرة والجلال
ونقط فيه جوهر باللآلي
على شرف من العلياء عالي⁵

ففي هذه الأبيات يهنئ الشاعر الملك الأشرف بزفافه على الملكة "خاتون"، ويتمنى له الهناء والسعادة في حياته، وفي هذا الزفاف كانت الملكة "خوند" والدة الملك الأشرف شعبان في غاية

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/9.

(2) العيني، عقد الجمان، 5/158.

(3) محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثاني، 338/1.

(4) خوند: تعني السيدة، وخاتون تعني المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه، ينظر: أدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، ص51، 58.

(4) ينظر: المصدر نفسه، ص51،

(5) ابن أبي حجلة، الديوان، ص198.

السعادة، وينتقل الشاعر لِيُبَيِّنَ لنا ماهي الطقوس التي كانت تُقام في حفلات الزفاف، حيث كان يُرش فيه ماء الورد، وفي هذا الحفل ظهر السلطان في غاية الشرف والعلو.

من خلال ما تقدم ظهرت محبة الناس للسلطان عندما حقق النصر على أعداء الأمة، وعندما يمن الله عليه بالشفاء بعد مرضه، وتنزل الشدة كانوا يفرحوا له، وكذلك عند رجوع السلطان لتولية السلطنة للمرة الثانية والثالثة كانت تبتهج الدنيا فرحًا لذلك، فنتقام الاحتفالات ليعبر الناس عن فرحتهم لهذه المناسبة، وشارك الشعراء السلاطين فرحتهم في الزفاف وعبروا عن ذلك في أشعارهم.

9. الوفاء للسلطان:

يستمر الوفاء للسلطان، ليرسُم الشعراء في دولة التُّرك أجمل الصور للسلطين في مراتبهم، ويظهروا الحزن والأسى على فراقهم ، حيث تركوا فراغًا كبيرًا برحيلهم¹ ،
رثى سراج الدّين الورّاق السّلطان عز الدّين أبيك وبكاه، وأعلن الحزن المستمر عليه، مُعلّيًا من شأن السلطان المرثي، فيقول لو أننا نبكي على قدر فقده، لأتبعنا البكاء الدائم عليه بالدم من لوعة وشدة الفراق، وبهذا يشير الشاعر إلى هول المصيبة التي حلّت عليهم بعد موت السلطان.

[الطويل]

نقيمُ عليه مآثمًا بعد مآثمٍ ونسفحُ دمعًا دون سفحِ المقطم²
ولو أننا نبكي على قدرِ فقدهِ لدمنا عليه نُتبعِ الدمعَ بالدم³
ينقل الشاعر ذاكراً صفات السلطان التي كان يتحلّى بها، فكان شجاعاً، لين القلب، واسع الصدر، فهو بقوته يُمثل جيش كبير وشديد، فالناس التي تطرق أبوابه منها ما هو عريق النسب وأصيل ومنها من يجلب النّحس والشؤم، ولكنّه واسع الصدر يستقبل كافة النّاس، وبرمحه الصلب القوي يبحث عن كل شيء مُستور ومخفي لدى عداه فهو شجاع لا يخاف أحداً، وبصوّر وذلك في الأبيات الآتية:

[الطويل]

يمثّلُ لي شخصَ المعزِّ إذا بدت لعيني اطلابُ الخميسِ العرمِ⁴
كأن لم يكن والنّاس ما بين مُعرقٍ لأبوابه تسري وما بين مُشمِّم
كأن لم يكن بالسّمهريةِ باحثًا على كلّ شيءٍ من عُداه مكتم⁵

(1) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي في أيام المماليك، ص377

(2) المقطم: هو الجبل المشرف على القرافة ، ويمتد من أسوان حتى طرف القاهرة، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 5/176.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 9/473.

(4) العرم: الكثير من كل شيء أو الشديد من كل شيء، ومنه: جيش عرمرم، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (عرم).

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، 9/474، السّمهري: الرمح الصليب العود، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (سمه)

ويرثي محيي الدين ابن عبد الظاهر الملك الظاهر ببيرس، فيلقي على قبره التحية والسلام، فيكيه ويسكب الدمع الغزير عليه، ويجمع الشاعر بين دمع عينيه ودمع السحابة، وذلك ليدل على كثرة انسكاب الدمع، لهول المصيبة والفقد لهذا القائد الذي فُجع به الإسلام والمسلمون، ويعبر عن ذلك بقوله:

[الكامل]

أبدا عليك تحيةً وسلاماً
يا ثربةً لولا الحياء من الحيا
يا دمعَ عيني مثل دمع سحابةٍ
بعد ذلك ينتقل الشاعر ذكراً صفات المرثي، وخصاله الحميدة التي كان يتحلّى بها، فيبين أنّ الحظوظ تتضاعف من بركات هذا الإنسان، فهو صاحب مكانة حتى عند موته الناس تتقاسم الأرزاق وتتضاعف عطاياه، وكان الناس كانوا يلجأون إليه لقضاء حاجاتهم، فيلبّيها لهم، ذلك الإنسان هو الذي حرّر الحصون والقلاع، وقهر الأعداء حتى ناح الحمام من كثرة القتلى، وهذا يشير إلى مكانته

[الكامل]

الرفيعة، ودوره الفعّال في حماية البلاد.

قبرٌ به تتضاعف الأقسام من
قبرٌ به تتوسّل الآمال في
قبرٌ الذي قلّع القلاع
قبرٌ الذي قهر التتار فأصبحوا
بركاته وتوكّد الأقسام
حاجاتها وتصرّف الأحكام
سكّانها وله الحصون خيام
ولهم إذا ناح الحمام حمام³
وأما القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، فقد تحسّر على فقد الظاهر ببيرس، وبيّن أثر هذا الفقد،

فالقلب لا يتحمل هذه المصيبة، والجبال اهتزّت من هول المصيبة، وأول هذه الأبيات هي:

(1) سجام: من سجم الدمع: سال، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، (سجن)

(2) العيني، عقد الجمان، 183/2.

(3) المصدر نفسه، 182/2. الجمام: المنية والفراق، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (حمام).

[الكامل]

ما مثّل هذا الرزء قلبُ يحملُ
كلا ولا صبرٌ جميلٌ يجمُلُ¹
اللأه أكبر إنّهـا لمصيبةٌ
منها الرواسي خيفةٌ تتقلُّلُ²
واشتملت المرثي في عصر الدولة التركيّة على الجمع بين رثاء السلطان الميت وبين قدوم السلطان جديد، فهذا محيي الدّين بن عبد الظاهر بين رثائه للظاهر بيبرس والتهنئة بقدوم السلطان الجديد وهو السعيد بن الظاهر بيبرس، فيرثي الشاعر السلطان الظاهر وببكيه، ويذكر قدوم ابنه السعيد من بعده،

[الكامل]

وعن ذلك يقول:

أنا إن بكيتُ فإن عذري واضحٌ
ولئن صبرتُ فإنني أتمثّلُ
خلف السعيد لنا الشهيدُ
فأدمعُ منهلةً في أوجه تهلّلُ³
ومن ذلك أيضاً، قال بعض الشعراء أبيتاً يرثي بها الملك المنصور سيف الدّين قلاوون والتهنئة بقدوم الأشرف صلاح الدّين خليل، فهو يُفجع بوفاة الملك المنصور، ولكن الذي خفف عنهم هذه المصيبة، وهولها، ابنه الأشرف، الذي حقق لهم مطالبه، فقد خلف لهم ذلك الملك الحاسم الشجاع،

[الكامل]

الذي لا يتراجع عن مراده، ولا ينكسر أمام العدو أبداً:

بمنية المنصور شاهدا الردى
لكن شهدنا في ابنه كلّ المنى
فلئن أساء الدهرُ فيه فإنّه
بالأشرف الملك المؤيد أحسننا
أبشُرُ فقد خُفّتَ بعدك صارماً
ما انفلّ عن نيل المراد ولا انثنى⁴
وهذا علاء الدّين الوداعي يرثي الظاهر بيبرس، فيصوّره رجلاً صالحاً، لهذا أحاطت السكينة

والوقار بجثمانه، موجهها خطابه إلى الملوك المدفونين في دمشق:

(1) الرزء: المصيبة بفقد الأجزاء، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (رزء).

(2) العيني، عقد الجمان، 183/2، نقل: من قلّل الشيء، تحرّك واضطرب، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (قل).

(3) المصدر نفسه، 184/2.

(4) المصدر نفسه، 21/3.

[الكامل]

قُلْ لِلْمُلُوكِ الْمِيثِينَ بِجَاقٍ
يَهْنِكُمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَارُ¹
فُؤِمُوا إِلَيْهِ تَلْتَقُوا تَابُوتَهُ
فِي جَانِبَيْهِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ²
وكان السلطان الملك الصالح إسماعيل³ سلطاناً، عاقلاً، هيئاً، ليناً، رتب دروساً بمدرسة جده المنصور
قلاوون، وبقي مثابراً على فعل الخير حتى توفي⁴، فلما مات رثاه صلاح الدين الصفدي:

[الطويل]

مَضَى الصَالِحُ الْمَرْجُو لِلْبَاسِ وَالنَدَى
وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى الْمُنَى بِالْمَنَاحِ
فِيَا مُلْكٍ مَصْرَ كَيْفَ حَالُكَ بَعْدَهُ
نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحِ⁵
ومما سبق نلاحظ أنّ الشعراء رثوا السلاطين الأتراك بعد موتهم بأجمل الأشعار، فحزنوا لموتهم،
وذرفوا الدموع على فراقهم، ثمّ راحوا يذكرون صفاتهم الحميدة التي تحلوا بها، وبهذا يستمرّ الوفاء
للسلطان حتى بعد وفاته.

(1) جلق: قيل هي دمشق نفسها، وقيل هي موضع بقريّة من قرى دمشق، الحموي، معجم البلدان، 154/2.

(2) رائد عبد الرحيم، علاء الدين الوداعي حياته وشعره، ص 114، الوافي 337/10

(3) هو إسماعيل بن محمد بن قلاوون، الملك الصالح ابن الملك الناصر ابن الملك المنصور عماد الدين أبو الفداء، تولى السلطنة سنة (743هـ) وهو السلطان السادس عشر من ملوك الترك، والرابع من بني محمد بن قلاوون، تسلطن في سنة (743هـ) بعد خلع أخيه الناصر أحمد، كان ساكناً، عاقلاً، قليل الشر، رتب دروساً بمدرسة جده المنصور، توفي سنة (746هـ)، ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، 219/9؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 380/1؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 64/10.

(4) ينظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 79/10.

(5) المصدر نفسه، 80/10.

10. الجمع بين الصفات المعنوية للسلطان:

من المقطعات الشعرية ما تجمع الصفات التي تحلّى بها السلطان، والتي افترض الشعراء أن تكون مجتمعة في شخص السلطان بعينه.

عندما تغلب السلطان قطز على التتار في معركة عين جالوت وانتصر عليهم، فكسر شوكة الأعداء، وعلا مجد الإسلام، فكان هذا النصر بفضل السلطان الملك المظفر، سيف الإسلام، فقد أتى للمعركة بثبات وشدة، لذلك أوجب الله على عبده الشكر الدائم له، لعظمة خلقه وجلالة قدره.

[الخفيف]

هلك الكفر في الشام جميعاً	واستجد الإسلام بعد دحوضة
بالمالك المظفر البطل الأرم	وع سيف الإله عند نهوضه
ملكنا جاءنا بحزم وعزم	فاعترزنا بسمره وبيوضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضة ¹ .

وكان السلطان الظاهر بيبرس لديه القدرة على الصبر والتحمل والقيام بأكثر من مهمة، حيث كان يؤدي ما عليه من عبادات، ويتفقد أحوال العباد ويدبر أمورهم، ويدافع عن البلاد.

ففي سنة (667هـ) عندما وصل الظاهر بيبرس إلى مكة تصدق على الناس، وأدى مناسك الحج، وغسل الكعبة بماء الورد، ثم رجع إلى المدينة وزار قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وذهب إلى بيت المقدس ليقدس الحجة، ثم توجه إلى الكرك، ومنها إلى دمشق، فتعجب الناس من سرعته في التنقل وصبره، ثم دخل إلى حلب ليتفقد أحوالها ويدبر أمورها، ثم توجه إلى حماة، وبعدها عاد إلى مصر في يوم الثلاثاء الثالث من صفر في سنة ثمان وستين وستمائة، وفي ذلك قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتاً منها:

(1) بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص44.

[الكامل]

بَيْنَا تَرَاهُ فِي الْحِجَازِ إِذَا بِهِ
وَتَرَاهُ فِي حَلَبٍ يُدَبِّرُ أَمْرَهَا
وَيَلُوحُ فِي حِجِّ عَلَيْهِ عِبَاءَةٌ
لَا يَزَالُ لِلدُّنْيَا يَسُوسُ أُمُورَهَا

وقد ورد "في الألفاظ الخفية" أنه لما جلس السلطان الأشرف خليل على العرش، خُفِضَتْ الأسعار، لعدله، فهو المعروف بالجدود والعطاء وبالفضل والإحسان والسخاء وبالشجاعة والهيبة، فهناك مَنْ بَطَشَ وقهر ولكن عند إحالته للسلطان أصبح كالفراخ من شدة خوفه، فنصر الكثير من المظلومين، وعاقب من ظلم، فالمؤرِّخون ينسبون التواريخ السابقة له بما يفعله من أحداث.

[الطويل]

لَقَدْ حُطَّتِ الْأَسْعَارُ يَوْمَ جُلُوسِهِ
الَّذِي هُوَ الْمَعْرُوفُ بِالْجُودِ وَالْحَبَا
فَكَمْ خَائِفٍ إِذْ قِيلَ يُصْبِحُ جَالِسًا
وَكَمْ قَرِيبٍ الْمَظْلُومِ شَبِيرًا لَعْدَلِهِ
بَسِيرَتِهِ الْحُسْنَى يَفُوتُ مَوْرَخٍ

ورود أيضًا في "الألفاظ الخفية من السيرة الأشرفية" صفات مجتمعة في السلطان الأشرف خليل

[الطويل]

بَنِ قَلَاوُونَ، تَدُلُّ عَلَى كَرَمِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحِلْمِهِ:

كَرِيمٌ شَجَاعٌ عَادِلٌ مُتَوَرِّعٌ
فَلَا زَالٌ فِي عَزِّ وَمَلِكٍ وَبَسِطَةٍ

مدح ابن أبي حجلة، الملك الصالح بن الناصر محمد حيث أشار لكرمه وشجاعته، ومخافته لله سبحانه وتعالى، وإحسانه، وعدله.

(1) يَدْبُ: ذَبَّ عَنْهُ يَذْبُ ذَبًّا: دَفَعَ، وَمَنَعَ، يَنْظُرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ، مَادَّةُ (دَبِّبَ).

(2) أَطْلَسَ: ثِيَابٌ مَغْبِرَةٌ، يَنْظُرُ، ابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ، مَادَّةُ (طَلَسَ).

(3) الْعَيْنِيُّ، عَقْدُ الْجَمَانِ، 48/2 - 49.

(4) الْفَرَسِيخُ: وَحْدَةٌ قِيَاسٌ، ثَلَاثَةٌ أَمْيَالٌ أَوْ سِتَّةٌ، يَنْظُرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، اللِّسَانُ، مَادَّةُ (فَرَخَ).

(5) عَبْدِ اللَّهِ السَّعْدِيُّ، الْأَلْفَاظُ الْخَفِيَّةُ، 56/3.

(6) الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، 20-19/3.

[الطويل]

وكم للرجا في بحر جودك مركبٌ
مليكٌ تخافُ الأسدَ سَطوةً بأسِهِ
يقصّرُ عن إحسانه كلَّ قيصرٍ
يفرّقُ شملَ الظلمِ عنا بعدله

يطيبُ له ريحُ النوالِ فيقلعُ
ولكنْ له قلبٌ من الله يفرعُ
ويتبعهُ في العدلِ كسرى وتبعُ
ولكنْ على إحسانِهِ النَّاسُ أجمعوا¹

وذكر ابن أبي حجلة السلطان صفات مجتمعة في الأشرف شعبان بن حسين²، كساه الله ثوب
الهيبة والوقار، فلا أحد يتفوق عليه بالكرم والإحسان، ويتحدى الشاعر أن يكون هناك من يشبهه من
ملوك الأرض، هو وحده الذي يتفوق عليهم بصفاته الحميدة ، فهو أعظم ملوك الأرض، له أساليب

[الطويل]

خفيّة في التخطيط والرد على العدو، وهو حاد الذكاء كما السيف الصقيل

مليكٌ كساه الله حاةً هيبّةً
فمنْ ذا يجاريه إلى الجودِ عندما
ومنْ ذا يغوصُ البحرَ مثلي بمدحه
تريه خفيّ الرأي مرآةً عقله

ولكنّه عاري الوعودِ من المطلِ
يسابقُ في إحسانِهِ القولِ بالفعلِ
ومنْ في ملوكِ الأرضِ يشبهه؟ قل لي
بذهنٍ كحدِّ السيفِ أرهفَ بالصقلِ³

وأشار ابن أبي حجلة إلى صفات السلطان الملك الناصر قلاوون، له سيرة عطرة يشهد له بذلك
كرمه، وشهامته، وعفتة، في القول والفعل، فلا يعتدي على الناس ولا يذمهم، فهو خفيف الظل بل هو
أخف في روحه من النسيم الرطب، وأرجح في الرزانة من أبان بن عثمان بن عفان⁴، هذا المفسر
العالم الذي أوّل ما تحدث عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو من أهل التقوى والصلاح والعلم
في الفقه والحديث والسيرة ، والممدوح يمتاز أيضاً بهذه الصفات.

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص181.

(2) هو شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، الملك الأشرف ابن الملك الأمجد ابن الناصر ابن المنصور، أبو المعالي، تولى السلطنة سنة
(764هـ)، وهو السلطان الثاني والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية؛ العسقلاني، كانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة، مات وعمره
أربع وعشرون سنة، ينظر: الدرر الكامنة، 2/190؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 20/11: الزركلي، الأعلام، 3/163.

(3) ابن أبي حجلة، الديوان، ص200.

(4) هو أبان بن عثمان بن عفان، الإمام الفقيه، الأمير أبو سعيد بن أمير المؤمنين أبي عمر الأموي المدني، (ت 105هـ)، ينظر: الذهبي، سير

أعلام النبلاء، ص640

[الكامل]

مليك عادل شههم جواد
عفيف الذيل واليد واللسان
أخف من النسيم الرطب روحاً
وأرجح في الرزانة من أبان¹

وقد ذكر صفي الدين الحلي صفات مجتمعة في شخصية السلطان الناصر محمد، فهذا الملك لا يكل ولا يمل من عطائه المستمر الذي لا ينفد فهذا بالنسبة إليه راحة ما بعدها راحة، ويرى خلو إيوانه من الزوار خسارة وتعب لا ينتهي، ولكن لم يخل مكان في الأرض وإلا مدحه وأثنى عليه لما قدمه من عطاء، فعم الخير والأمن والأمان، أما المكان الذي لم يحالفه الحظ ولم تصله مكارم السلطان، فقد سالت فيه الدماء كثيراً، والكل يترقب عطاياه، ويخاف من قوته ويطشه، تراه مسالماً يساعد الناس ويعطف عليهم، وفي ذات الوقت يحارب الأعداء ويبطش بهم، فإن بطش خافته القلوب وإن جاد امتلأت العيون عطايا منه.

[الكامل]

ملك يرى تعب المكارم راحة
ويعد راحات القراع متاعبا
لم تخل أرض من ثناه، وإن خلت
من ذكره ملئت قنا وقواضبا²
ترجى مواهبه ويرهب بطشه
مثل الزمان مسالماً ومحاربا
فإذا سطا ملاً القلوب مهابة³
وإذا سخا ملاً العيون مواهبا³

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص268

(2) قواضب: مفردة قضيب، وهو السيف اللطيف الدقيق، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (قضب).

(3) صفي الدين الحلي، الديوان، ص96.

11. الصفات الحسيّة للسلطان:

لقد رسم الشعراء في دولة التّرك صورة حسيّة جميلة للسلطين الأتراك، حيث تمثّلت في ذكر المظاهر الحسنة في الوجه، والخد، والشعر، والقامة، واللباس، والخصر، فمن ذلك قول ابن أبي حجلة في وصف السلطان علاء الدين كجك¹، حيث شبه وجهه المضيء بالبدر الطالع في الليل، وفي النهار بنور الشمس، ولمّا جلس على عرشه، يقول الشاعر: حوّطه بأية الكرسي لكي يحفظه الله تعالى، ويرعاه من أعين الحاسدين.

[الطويل]

وبعدَ طلوع الشمس أبهى من الشمس
فحوّطته لمّا بدا فوق تخّته
بدا الأشرفُ السلطانُ كالْبدرِ في الدُجا
وفي أبياتٍ أخرى مدح فيها ابن أبي حجلة، السلطان الملك الناصر حسن، وذكر صفاته الحسيّة فوجهه مضيء ومنير كالْبدر، وشعره حالك كالليل، طويل القامة، وخذّه مُورّد عليه خال أسود، كالْحارسِ الزنجيِّ في سواده.

[الوافر]

والْبدرِ المنيرِ ضياءً فَرَقِ
وقامتهُ أَسْمَرِ بَيْنَ الْمُعْتَى
وشعرٌ مثَلِ طَوْلِ اللَّيْلِ دَامَسِ
وبين القربِ منها حربُ داحسِ
وخذٌ مِنْ شَقِيقِ الْوَرْدِ أَبْهَى
عليه خالُهُ الزنجيِّ حارسِ³
وفي مقطوعة أخرى مدح فيها السلطان حسن بن الناصر محمّد، واصفًا أياه: أنّه رشيق القامة، وبنانه مُخضّب، وخذّه مُورّد أحمر كالنّار المتوهجة، وقد علت وجنتيه شامتان.

(1) هو السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن السلطان الملك الناصر، تولى السلطنة سنة (742هـ) وله من العمر خمس سنين وقيل كان عمره دون سبع سنين، وهو السلطان الرابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، كانت مدة سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام، قُتل سنة (746هـ) وله من العمر اثنتا عشرة سنة، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 265/3؛ ابن تغري بردي، التجوم الزاهرة، 19/10؛ الزركلي، الأعلام، 220/5.

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص164.

(3) المصدر نفسه، ص154.

[البسيط]

فكم أبدى لعيني بالرديني رشيقَ القدِّ مخضوبَ البنان¹
لَهُ خدٌّ يُريكُ الوردَ ناراً ولي نفسٌ عليه كالمدخان
وفي دينارٍ وجنته إذا ما بدتْ لي شامتاهُ جنتان²

وهناك أبيات وردت أبيات قبيلت بالعامية، تصف السلاطين بصفات قبيحة، ومما عثرتُ عليه، أنه في

عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير، قد ساءت أحوال الناس، وتشاءموا بسلطنته، فوصفوه بالركين
ووصفوا الملك الناصر قلاوون بالأعرج وغلّت العامة في المعنى:

سلطاننا ركين³، ونائبنا دُقين جينا الماء منين

جيبوا الأعرج يجيء الماء ويدّرج⁴.

وبناءً على ما تقدم رسم الشعراء في عصر دولة التُّرك الصفات الحسيّة التي اتصف بها السلاطين،
وركزوا على ما هو جميل وحسن منها، كجمال الوجه، والخد، والشعر، واللباس، والخصر وقليلًا ما
ذكروا صفاتهم القبيحة.

(1) الرديني: الرمح، منسوب إلى امرأة السّمهريّ، تُسمّى ردينة، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (ردن).

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص286.

(3) ركين: كان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسمّته العامة (ركين) تصغيرًا من شأنه، دقين: ونائب السلطان الجاشنكير كان أجرد في حنكه بعض شعرات، الأعرج: كان الملك الناصر محمّد به بعض العرج فسمّته العوام (الأعرج)، ينظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 425/1.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 193/8.

12. العمارة وأعمال الإصلاح

يعتبر عصر الدولة التركيّة العصر الذهبيّ لفنّ العمارة الإسلاميّة، فقد اهتمّ السلاطين الأتراك بعمارة القصور والمساجد والمدارس والأضرحة، واهتموا أيضاً بالعمارة العسكريّة فالسلطان بيبرس بنى وجدّد الكثير من القلاع والأبراج في مصر والشّام¹.

وقد قام الشعراء بذكر مظاهر العمران التي شيدها السلاطين في عصر الدولة التركيّة، والتي أذهلت الأبصار، منها: المدارس، والقصور والمساجد، وقنوات المياه.

أ. المدارس:

من أشهر المدارس التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقداريّ، المدرسة الظاهرية، وقد انتهى من بنائها في سنة (662هـ)، وقد عني الظاهر بهذه المدرسة وأوقف عليها الأوقاف، وجعل بها خزانة كتب²، وقد أشاد أبو الحسين الجزار³ ببناء هذه المدرسة، فهي من أجمل المدارس، التي قصد السلطان الظاهر الأجر والثواب من بنائها، وهذا مكسب له في الدارين، تجمعت فيها كل آيات الجمال، وسحرت قلوب خلق الأرض وجذبت أعين الناس، ويذهب الشاعر ليعيد فيجعل جمال هذه المدرسة يضاهي جنة الخلد في السّماء، لا بل هي جنة الأرض، لشدة جمالها وعبر الجزار عن ذلك بقوله: [الطويل]

وَمَنْ يَتَعَالَى فِي الثَّوَابِ فِي الثَّنَا
بِهَا الْيَوْمَ فِي الدَّارَيْنِ قَدْ بَلَغَ الْمُنَى
فَرَأَيْتَ قُلُوباً لِأَنْبَاءٍ وَأَعْيُنَا
لَهُ فِي غَدٍ فَاخْتَارَ تَعَجُّبُهَا⁴

أَلَا هَكَذَا يَبْنِي الْمَدَارِسَ مَنْ بَنَى
لَقَدْ ظَهَرَتْ لِلظَّاهِرِ الْمَلِكِ هِمَّةٌ
تَجْمَعُ فِيهَا كُلَّ حُسْنٍ مُفَرَّقٍ
وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَّةُ الْخُلْدِ أُزْلِفَتْ

(1) ينظر، خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص76، 75.

(2) ينظر: محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، 40/2.

(3) هو جمال الدين أبو الحسين، يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي، الجزار، المصري، الأديب الفاضل، كان جزائراً، ثم استرزق بالمدح، وشاع شعره في البلاد، وتناقلته الرواة، وكان كثير التبذير، دُفن بالقرافة سنة (679هـ)، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 293/13؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 568/1؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 636/7.

(4) أحمد خليفة، شعر أبي الحسين الجزار المصري، ص353، أزلفت: فُرِيت، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (زَلَف).

وفي موضع آخر يُصوّر سراج الدين الوراق المدرسة الظاهريّة، فهذه المدرسة النظاميّة فاقت نظاميّة بغداد، وهي تشبه الرّوض في جمالها وبهائها، تُخبر عن مدى عطاء وكرم صاحبها، وهي كالسحاب في العطاء، ومحرابها كأنّه أزهار تتفتح وتخرج من غطائها أوّل النهار. [الطويل]

فلا تذكرن يوماً نظاميّة لها
ومذُ برزت كالروض في الحسنِ أنبأت
فليس يضاهاى ذا النظام نظام
بأن يديه في النوال غمام
الم تر محراباً كأنّ أزهاراً
تفتح عنهنّ الغداة كمام¹

وفي سنة (683هـ)، كُملت عمارة المدرسة المنصوريّة²، والبيمارستان³، والقُبة، والثّرية ومكتب السبيل بالقاهرة، في عهد الملك المنصور قلاوون الألفي، حيث شُيّدت هذه العمائر على أيدي بناء مهرة⁴، فوصف الشعراء تلك العمائر، ومنهم شرف الدّين البوصيري⁵، مشيراً إلى أنّها تمتاز بحُسن جمالها ومنظرها حتى فاقت في حسنها قصري الخورنق والسّدير اللذين يضرب المثل بحسنها، وهي مدينة علم واسعة، فالمدارس التي حولها كالقري أو النجوم وهي بدرهن المنير، ويبدع الشاعر مرّة أخرى في التصوير ليصوّر لنا دقة بناء هذه المدرسة بخلية النّحل التي تهندس وتنظم شكلها من أجل صنع أقراص من العسل في غاية الدقة والجمال، ومن معالمها قبتّها التي تذكر مشاهدتها بقبة النسر في الجامع الأموي في دمشق، وفيها أعمدة كثيرة تفوق عدد أيّام السنة.

(1) محيي الدين بن عبد الظاهر، الرّوض الزّاهر، 184-185، الكمام : غطاء الزهرة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (كمم).
(2) هي المدرسة التي أنشأها الملك المنصور قلاوون، وكان على عمارتها الأمير علم الدّين سنجر الشجاعيّ، رُتب فيها دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير، ودرس حديث، ودرس طبّ، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 2/264.
(3) البيمارستان: مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، ينظر: سعيد عاشور، العصر المالكي، ص468.
(4) ينظر: العيني، عقد الجمان، 2/326.
(5) هو محمّد سعيد بن حمّاد بن محسن بن عبد الله، الصنهاجي شرف الدين أبو عبد الله، ولد سنة (608هـ) يعرف بابن شابذ، قاض بأزمور، له "كنز الأسرار ولوّاح الأفكار" في الأدب والفضائل، توفي سنة (696هـ)، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 3/88؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 1/570؛ الزركلي، الأعلام، 6/139.

[الطويل]

ومدرسة ودّ الخوّزَنق أَنَّهُ
مدينةٌ عِلْمٍ والمدارس حولها
بناءً كأنّ النحل هندسَ شكله
ذكرنا لديها قبّة النسر مرةً
بها عمْد كاثرن أيام عامها
لديها حظيرٌ والسديرٌ غديرٌ¹
فُرى أو نجومٌ بذرهن مُنيرٌ
ولانت له كالشمع فيه صخورٌ
فما كاد نسرٌ للحياء يطيرُ
ومن عامها لم تمضِ بعدُ شهورٌ²

ولما انتهى الملك الأشرف شعبان بن حسين من بناء مدرسته التي أنشأها برأس الصوة في مصر، وبالغ في إتقانها وضاهى بها مدرسة عمه السلطان حسن، نظم ابن أبي حجلة قصيدة استهلها بأبيات غزلية واصفاً المدرسة بالجمال الخارق، حيث احتار عقله لحسن منظرها، فليس لها مثل في مصر، حيث شبهها بالفتاة الحسنة التي تُبهر العقول لفرط جمالها، وهو أكثر العاشقين لها، فهي مضيئة كالبدر في الليل، ومُشعة نوراً كالشمس في الضحى، وهي كغصن الشجرة في روضة، وكالظبي يسير في الرمل، فالشاعر تناول أجمل التشبيهات ليُبين لنا أنّ هذه المدرسة في غاية الجمال، لا مثل لها

[الطويل]

في الحُسن، مستخدماً حسن التقسيم في الأبيات.

عقيلةٌ خدرٍ حارٍ في حُسنِها
فلسْتُ أرى في مصرَ حُسنًا
هي البدرُ في ليلٍ، هي الشمسُ في
وزادَ بها علمي وزالَ بها جهلي
وليسَتْ ترى في العاشقينَ لها مثلي
هي الغصنُ في روضٍ، هي الظبيُّ في رملٍ³

ثم يذهب الشاعر ليصف تلك المدرسة، فيذكر صفات تُعلي من شأنها، فيقول الشاعر لمن طلب منه وصف هذه المدرسة: أنا لا أستطيع أن أصفها، لأنّها تعالت في الجمال، فبيوتها أعلى شأنًا ومكانةً من أبيات شعر الشعراء الذين مدحوها قبله، فهو لم يرَ مدرسةً مثلها قط أُسست على العلم والتقوى ولا حتى تخيلها في عقله، درّس فيها علماء الدّين على مختلف طبقاتهم، فهذه المدرسة

(1) الخوّزَنق: قصر للنعمان بن المنذر، والسدير: قصر في العراق لآل منذر، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادتي (خرن) و(سدر).

(2) العيني، عقد الجمان، 2/328؛ بيبرس المنصوريّ التحفة الملوكية، ص111 و112.

(3) ابن أبي حجلة، الديوان، ص200.

الموصوفة فيها الكثير من العلم والمعرفة، وجمعت بين المذاهب الإسلامية، إلا أن المذهب الذي كان

يتبعه السلطان الأشرف شعبان، هو مذهب الإحسان مع جميع البشر. [الطويل]

يقولون لي صفاها، فقلتُ بيوئها
فلم أرَ دارًا مثلها قطُ أسست
بها علماء الدين في طبقاتهم
لئن جمعتُ شملَ المذاهب كلها
تعالَتْ على أبيات شعر الألى قبلي
على العلم والتقوى ولا دارَ في عقلي
من العالم العلوي للعالم السفلي
فمذهبه الإحسان فيها إلى الكل¹

وينتقل الشاعر بعد ذلك ليصف معالم هذه المدرسة، فكل حائط فيها مرصع بالذهب، يبهر الناس

بلمعانه وبريقه، وما في دهليزها من جواهر وجمال يغني الزائرين عن التفكير في غيره، وهو يعيش

بحرته التي أغنته بجمالها عن الأكل والشرب، ومحرابها لم يُشيد مثله في مصر، وبهذا الوصف يُبين

الشاعر على أن هذه المدرسة واسعة جدًا، وفيها مرافق عديدة، بُنيت بدقة واحترافية عالية، وليس لها

مثيل في مصر. [الطويل]

بها الذهبُ الإبريزُ في كلِّ حائطٍ
يفوقُ خراجَ الأرضِ دهليزها الذي
وأشرب قلبي حبُّ بحرته التي
ومحرابها لم يُبنَ في مصر مثله
مباحٌ بلا ختم عليه ولا قفلٍ
غُنينا بما فيه عن الخرج والدخل²
غُنيت بما فيها عن الشربِ والأكلِ
من الجانبِ البحري إلى الجانبِ القبلي³
ب. الإيوان⁴:

لما جدّد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إيوانه وزخرفه وأعلى من قُبته، قال ابن دانيال

الموصلي، مبيّنًا أنّها في غاية العلو واعتبرها عاشر الكواكب التسعة، وكوكب زحل أدنى منها في علو

المنزلة والمكانة، وهذه القبة تحرسها الملائكة فلا يستطيع الشيطان الاقتراب منها، وهي عندما ارتفعت

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص 201.

(2) الدهليز: فضاء مستطيل بين الباب والدار، أي مدخل الدار، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (دهك)

(3) ابن أبي حجلة، الديوان، ص 201.

(4) الإيوان: هو بناء له جدر من ثلاث جهات والرابعة مفتوحة، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (أين)

واكتملت، أصبحت النجوم تستظلّ في سماها، فالقبة مذهبة والأفلاك تشبهها، فأركانها قوية مثل أركان

[البسيط]

الإسلام.

وَقُبَّةٌ هِيَ لِلْأَفْلَاقِ عَاشِرَةٌ وَدُونَهَا فِي عِلْوِ الشَّانِ كِيَوَانُ¹
كَأَنَّهَا الْعَالَمُ الْعُلُويُّ تَحْرُسُهَا الْأَمْلاكُ لَمْ يَدُنْ مِنْهَا تَمَّ شَيْطَانُ
عَلَتْ فَأَفْلَاقُهَا الْأَفْلَاقُ فِي شَرْفٍ وَتَبَّرَهَا الشُّهُبُ وَالْأَرْكَانُ أَرْكَانُ²

وقال ابن أبي حجلة شعراً في إيوان الملك الناصر حسن قلاوون، مبيئاً أنه في غاية الجمال والإتقان

حيث سلبت أبنيته عقول الناظرين وحيرت الأذهان، فهو شديد اللمعان، ذهبي اللون، وقد فاق في

لمعانه شمس الضحى التي تكون في هذا الوقت شديدة السطوع واللمعان، وفيه العديد من أواني الفضة

[الكامل]

ذات اللون الأحمر، وأما شبابيكه فهي واسعة مُطلّة.

فَكَأَنَّمَا الْإِيوَانُ حِينَ يَلُوحُ فِي الْـ بَسْتَانٍ وَالْبَسْتَانِ فِي الْإِيوَانِ
تَسْبِي عَقُولِ النَّاطِرِينَ عَقُودَهُ وَتُحَيِّرُ الْأَذْهَانَ بِالْإِدْهَانِ
فَاقَتْ بِهِ شَمْسَاتُهُ شَمْسَ الضُّحَى فَحَوَتْ مَعَ اللَّمَعَانِ حَسَنَ مَعَانِي
كَمْ جَامِةٍ حَمْرَاءَ فِيهِ لَمْ يَزَلْ لَلْقَانِ فِيهَا لَوْنٌ خَدَّ قَانِ³
وَبِهِ شَبَابِيكَ تَرَى بَعِيونَهَا مَا لَاحَ مِنْ مِصْرَ إِلَى أُسْوَانِ⁴

ج. عمارة ميدان دمشق:

لمّا أمر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بعمارة ميدان دمشق، قال علاء الدين الوداعي، شاكراً

الأمراء على إتقانهم هذه العمارة، فالسلطان سيغدق عليكم بسيل من عطاياه الأشرفيّة، جزاءً لكم

على هذا البناء العظيم المتقن.

(1) الكيوان: كوكب زحل، ينظر: حسان حلاق وآخر، المعجم الجامع، ص193.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13

(3) الجام: إناء من فضة، وهي كلمة أعجمية، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة "جوم"

(4) ابن أبي حجلة، الديوان، ص272، 273، أسوان: هي مدينة كبيرة في آخر صعيد مصر، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 191/1.

[الوافر]

جُزَيْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَرَاءُ خَيْرًا عَلَى إِتْقَانِكُمْ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ
فَلَا تَخْشَوْا عَلَى الْمِيدَانِ شَيْئًا سِوَى سَبِيلِ الْعَطَايَا الْأَشْرَفِيَّةِ¹

د. بناء المساجد:

نظرًا لاهتمام السلاطين الأتراك بالأمور الدينية في الدولة، فإننا نجدهم يكثرون من بناء المساجد، فكان إذا تمّ بناء جامع أو مسجد، عُيِّن له إمام وخطيب وخدم، واحتفل بافتتاحه، ولم تكن المساجد دورًا للعبادة فقط، بل كان لتدريس العلوم الدينية وغيرها من العلوم².

ففي سنة (711هـ) رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة جامع على شاطئ النيل بمصر، فأنفق عليه من ماله الخاص، واكتملت عمارته في سنة (712هـ) ، وهو الجامع المعروف بالجامع الجديد³، فكانت بنيته على شاطئ النيل، فأصبح حبه مزروع في نفوس الناس كالأسهم التي عُرِزَت في القلب، وقد بناه السلطان من الذهب بدلًا من الطين المخلوط بالتبن، فتعلق الناس به، وأصبح قوتًا لقلوبهم يطهرها من الذنوب والخطايا:

[الرجز]

وجعلت شكران التمكن جامعا قد وقّرت من أجله لك أسهم
جارية فيه النيل نيلًا فاغتندي يجري ليدرك ما يجود وينعم
عوضته بالتبن تبرًا⁴ فاغتندي قوتُ القلوب به ونعم المغنم⁵

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 406/13

(2) ينظر: سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص177.

(3) ينظر: العيني، عقد الجمان، 312/5، الجامع الجديد: هو الجامع الذي بناه السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر، سنة (712هـ)، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، 238/2.

(4) التبر: الذهب كُله، ينظر: ابن منظور، اللسان، مادة (تبر)

(5) العيني، عقد الجمان، 312/5.

هـ. بناء التربة:

كانت تُبنى في عصر دولة التُّرك أماكن يدفن فيها الميت، فقد اهتمَّ السلطان الظاهر بيبرس ببناء تربة على والده، فاشترى دارًا تُعرف بالعقيقي وبنائها تربةً، ودفن والده هناك¹، فقال القاضي محيي

[الخفيف]

الدِّين بن عبد الظاهر:

فزوروا من كل فج عميق
دفنوه منها بدار العقيق²

صاح: هذا ضريحه بين جفني
وكيف لا وهو من عقيق دموعي

و. عمل قناة مياه:

في سنة (703هـ) اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام إلى القدس الشريف، واجتهد إلى أن وصل الماء إلى بيت المقدس، وهذا يعتبر من أعمال الخير التي كان يقوم بها السلطان الناصر، وفي ذلك قيل:

[الكامل]

أجرى القناة بأرض بيت المقدس
وإليهم أهدى حياة الأنفس³

طوبى لملك ليس يحصر أجره
روى الورى وعن الحيا أغناهم

ومن القرارات الإدارية التي اتخذها السلاطين في حق الكفار الذين ضيقوا على الناس وتحالفوا

مع الأعداء، وخاصة أهل الذمة، ففي سنة (700هـ) ألزمت السلطة أهل الذمة من اليهود والنصارى

بمصر والشام بتغيير لباسهم، فلبس أهل الذمة العمام المصبغة: النصارى أزرق، واليهود أصفر،

والسامرة أحمر⁴.

(1) ينظر: العيني، عقد الجمان، 201/2

(2) المصدر نفسه، 201/2.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، 54/2.

(4) ينظر: السيوطي، حسن الحاضرة، 298/2.

فسخر الشعراء من أهل الذمة وذكروا ذلك في شعرهم، منهم الشاعر علاء الدين الوداعي حيث وصف ذلهم، وشبه الأصباغ التي صبغت بهم ملابسهم بفضلات نسر طائر في السماء أصابه الإسهال، ومن فوقهم أنزل فضلاته عليهم، يقول:

[الطويل]

لَقَدْ أَلْبَسُوا أَهْلَ الْكُتَابِينَ ذُلًّا وَالسَّامِرِيِّنَ لَمَّا عَمَّمُوا الْخِرْقَا
كَأَنَّمَا بَاتَ بِالأَصْبَاغِ مُنْسَهَلًا نَسْرُ السَّمَاءِ فَأُضْحَى فَوْقَهُمْ ذُرْقًا¹
وفي نفس المعنى يسخر الوداعي من الكفار، ويقول لهم ألبسوكم لباس الذل، وأجبروكم على لباس

[الطويل]

النعل الخلق، ويشير إلى ذلك فيقول:

لَقَدْ أَلْزَمَ الْكُفَّارَ شَاشَاتِ ذُلِّهِ تَزِيدُهُمْ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ تَشْوِيشَا
فَقُلْتُ لَهُمْ مَا أَلْبَسُوكُمْ عَمَائِمَا وَلَكِنَّهُمْ قَدْ أَلْزَمُوكُمْ بَرَاطِيشَا²
والخلاصة تتمثل في صورة السلطان الذي اهتم بعمارة بلاده، وقام بإصلاحات وأعمال إدارية في البلاد حيث بنى كل ما يحتاجه الناس من مدارس، ومساجد، ومشافى، وقنوات مياه، واهتم بأن يكون كل ما يُبنى بأبهى صورة، وأن تعم فائدته للناس كلهم، فصوّر الشعراء تلك الأعمال واصفين ما فيها من جمال وإتقان.

(1) رائد عبد الرحيم، علاء الدين الوداعي حياته وشعره، ص79، الذرق: من ذرق أي رمى الطائر بسلحه، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (ذرق).

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 4/359، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 8/110، البراطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنعل الخلق، ينظر: أحمد رضا، معجم متن اللغة، مادة "ب ر ط".

ثانيًا: الصورة السلبية للسلطان في دولة الترك:

لقد أظهر الشعراء صورًا سلبية متنوعة للسلطين الأتراك، فعبروا عن بطشهم وظلمهم، ورفضوا سياستهم المالية، وكثرة السلطين، وسخروا من صغر سن بعضهم، وغيرها من الصور السلبية.

1. البطش والظلم:

لقد عبر الشعراء عن النّحس والظلم الذي كانوا يعانونه من الحُكّام الذين لا يندرون من أصل عربي، ومن ذلك ما قاله بهاء الدين زهير، يهجو الدولة الأيوبية التي عاش فيها فترة من حياته، ويندّم من حكم سلاطينها، وعاش باقي حياته في ظل حكم الدولة التركية فما كاد أن يتخلص من

نحس حتى جاءه أنحس منه:

[مجزوء الخفيف]

دولةٌ قد سألنا
ورحنا حين زالت
ربّنا التعويض عنها
جاءنا أنحس منها¹

وفي سنة (709هـ) في عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري²، كان قد تفشى المرض وتوقف زيادة النيل وارتفعت الأسعار، فتشام الناس من سلطنته³، فلما خرج المظفر من مصر هاربًا، قبل دخول الملك الناصر، استبشرت الناس بقدم الملك الناصر، وفي ذلك قيل:

[الوافر]

تنتى عطف مصر حين وافى
فذل الجاشنكير بلا لقاء
قدوم الناصر الملك الخبير
وأمسى وهو ذو جاشنكير⁴

(1) البهاء زهير، الديوان، ص288.

(2) المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون، لقب بالمظفر، تسلطن سنة (708هـ)، وهو السابع من سلاطين الترك، فرّ من مصر هاربًا قبل مجيء الملك الناصر، وتخلّى الناس عنه ومضوا لنصرة الملك الناصر، ينظر: العيني، عقد الجمان، 53/5؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 183/8؛ الزركلي، الأعلام، 79/2.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 192/8.

(4) المصدر نفسه، 220/8، الجاشن: الخوف، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (جار)

وبعد مصرع المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون¹ بين صلاح الدين الصفدي، كثرة ظلمه للرعية حيث تعفر في التراب الذي دُفن فيه ، فقد قتل الكثير من الأمراء والنفوس ظلماً، وذنوبه على هذا القتل والظلم لا تُكفّر، قال:

[المجتث]

حان الردى للمظفر وفي التراب تعفر
 كم قد أباد أميراً على المعالي توفراً
 وقاتل النفس ظلماً ذنوبه ما تكفّر²

أما شهاب الدين الأعرج السعدي³، فقد تصدى للسلطين أنفسهم، فرفض السياسة المالية التي اتبعها السلطين، لأنهم كانوا يظلمون الناس، بأن عيّنوا النصارى القبط⁴ جباة للضرائب، فاقتسموا أغلب ما كانوا يجمعونه معهم، والقليل يبقى لعامة الناس بحيث كانت قسمة ظالمة فالترك والسلطان لهم الثلث، والقبط النصف، وبقية الخلق السدس:

[الطويل]

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل من دونه الأتراك بالسيف والترس⁵
 وقد جمعتهُ القبط من كل جهة لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
 فالترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف، والخلائق في السدس⁶
 ويعزو ابن نباتة أن السبب في بوار الأرض وعدم رغبة الناس في الفلاحة، هم الحكام وذلك لأنهم

[الخفيف]

ينهبون خيراتها، ويظلمون الفلاحين، فيقول:

يا سراً الشام أشكو إليكم أرضاً قلّ فلاحها الرجاء
 وإذا قلت الفلاحة في الأرض فعتبُ الفتى على الرؤساء⁷

(1) هو حاجي بن محمد بن قلاوون، سيف الدين، الملقب بالمظفر، تولى السلطنة سنة (747هـ)، وشغل بالهوى ولعب الحمام، لصغر سنه، وساعات سيرته حيث فتك ببعض القواد، وهم يقتل آخرين، فعاجلوه بالقتل، سمي حاجي لأنه ولد في طريق عودة أبيه من الحج الصفدي، قتل سنة (748هـ)، ينظر: الوافي، يالوفيات، 237/11؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 118/10؛ الزركلي، الأعلام، 2/153.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 139/10.

(3) هو أحمد بن يحيى بن مخلوف بن مري بن فضل الله بن سعد بن ساعد، الشيخ شهاب الدين الأعرج السعدي، الأديب، اشتغل بالعلم، توفي سنة (785هـ)، ينظر: المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، 161/5؛ العسقلاني، الدرر الكامنة، 335/1؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 297/11.

(4) القبط: هم جيل بمصر، وقيل هم أهل مصر، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (قبط).

(5) الترس: الترس من السلاح، ما يتوقى به، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (ترس).

(6) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 335/1، 336.

(7) ابن نباتة، الديوان، ص18، 19.

وعبر الشعراء عن النّحس والظلم الذي كانوا يعانونه من الحُكّام الذين لا ينحدرون من أصل عربي، ومن ذلك ما قاله بهاء الدّين زهير، يهجو الدّولة الأيوبيّة التي عاش فيها فترة من حياته، وينتدمر من حكم سلاطينها، وعاش باقي حياته في ظل حكم الدولة التركيّة فما كاد أن يتخلّص من نحس حتى جاءه أنحس منه:

[مجزوء الخفيف]

دولّة قد سألنا ربّنا التعويض عنها
 وفرِحنا حين زالت جاءنا أنحس منها¹

2. كثرة السلاطين:

لقد كثُر الحُكّام الذين تولوا السلطنة في عصر دولة التّرك، فلا يكاد النَّاس ينتهون من الاحتفال في ملك أو نائب حتى تُزيّن الأسواق للاحتفال بملك أو نائب آخر، وعبر عن كثرة تلك الاحتفالات وسرعتها، باللقى التي لم تلتحق تنبت، وهذا ما ذكره ابن الورديّ حيث قال:

[السريع]

فكم ملكٍ جاءَ وكم نائبٍ يا زينةَ الأسواقِ حتى متى
 قد كمرروا الزينةَ حتى اللّحي ما بقيت أن تلتحقُ أن تنبتا²

3. صغر سن السلطان

كانت سلطنة صغار الأمراء من المظاهر السياسيّة الشائعة في الدولة التركيّة، فتحكم الأمراء أصحاب النفوذ بإدارة البلاد، فالملك العادل بن الملك بيبرس تولى الحكم وهو في السابعة والنصف من عمره، وكذلك الناصر محمّد قلاوون كان في التاسعة من عمره، وهذا السلطان الأشرف كجك تولى السلطنة وهو ابن ثمان ، بعد ما خلّع أخيه الملك المنصور، فساعت أحوال البلاد في مصر وبلاد الشّام، فوقع الخلاف بين الأمراء، وأعلن النّواب العصيان³.

(1) البهاء زهير، الديوان، ص288.

(2) ابن الوردي، الديوان، ص485.

(3) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص47.

وقد سخر الشعراء من تولي صغار السن مُلك مصر، قال الشيخ صدر الدين ابن المرحّل¹ بسخرية

[البسيط]

لاذعة.

ما للصَّبِيِّ وما للملِكِ يَخْفُوهُ شأنُ الصَّبِيِّ بغيرِ الملِكِ مألوف²

وسخر ابن الوردي³ من صغر سن السلطان الأشرف كجك بن محمّد قلاوون، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى أولئك الذين يتسابقون على الحكم ويدخل بينهم الشيطان، وهذا يؤدي إلى تدمير الأوضاع في البلاد، ويعيش الأهل والشعب في حالة من الظلم، فكيف لهم أن يشكو همومهم وسلطانهم لم يبلغ بعد، فيسخر الشاعر من إمارة هذا الصبي الصغير غير البالغ، لا بل يعبر عن احتجاجه من تولي هذا الطفل.

[البسيط]

سلطاننا اليومَ طفلاً والأكابر في خُلفِ وبينهم الشيطان قد نَزَعَا
فكيف يَطْمَعُ من مسّته مظلمةً أن يبلغ السُّؤلُ والسلطانُ ما بلغا⁴

4. حب النساء

سخر الشعراء من لهو السلاطين وحبهم للنساء، فالسلطان حسن بن محمّد بن قلاوون عُرف بحبه للنساء، فلمّا اختفى أثره وجاء خبره، سخر منه أحد الشعراء، مستعيناً بسور القرآن الكريم، فيذكر أنّه حفظ سورة النساء ونسي سورة الواقعة، ويربط ذلك بحبه للنساء وشغفه لهنّ، وعدم اهتمامه بآخرته، وجعل القينات أحزاباً له، وأخيراً يدعو على السلطان الذي لا يخشى مصيره ويعبر عن ذلك:

(1) هو صدر الدين أبو عبد الله، محمد بن زين الدين عمر بن مكي عبد الصمد العثماني، الشهير بابن المرحل وياين الوكيل، مصري الأصل، تقدم في الفنون والشعر، كان فصيح العبارة، حلو المحاضرة، حفظ المفصل في مائة يوم، درس في المدارس الكبار، كان محبباً إلى الأكابر، توفي سنة (716هـ)، ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 80/14؛ العسقلاني، الدرر، 115/4-123؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 233/9.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/9.

(3) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي، الفقيه الشافعي، الشاعر المشهور، كان إماماً بارعاً في اللغة والفقه والنحو، اختصر ألفية ابن مالك في مائة وخمسين بيتاً، توفي بجلب سنة (749هـ)، ينظر: العسقلاني، الدرر الكامنة، 195/3؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 275/8.

(4) ابن الوردي، الديوان، ص222.

[الكامل]

حَفِظَ النَّسَاءَ وَمَا قَرَأَ لِلوَاقِعَةِ
وَأَتَى الْقِتَالَ وَأُصِّدَتْ بِالْقَارِعَةِ
عَطِطَ بِهِ الدِّخَانَ نَارًا لَامِعَةً¹
فِي اللَّيْلِ إِذْ يَغْشَى يَمْعًا فِي النَّازِعَةِ²

لَمَّا أَتَى لِلْعَادِيَاتِ وَزُلْزِلَتْ
فَلَأَجَلِ ذَاكَ الْمُلْكَ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ
مَنْ كَانَتْ الْقَيْنَاتُ مِنْ أَحْزَابِهِ
تَبَّتْ يَدَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الدَّعَا

5. فرض الضرائب

كان سلاطين الدولة التركيبة يفرضون ضرائب فادحة على الناس، وكانت في أغلب الأحيان تُفرض لتحقيق المصالح الشخصية³. فأشار الشعراء إلى ذلك في أشعارهم، ومن ذلك:

عندما قرر الظاهر بيبرس فرض الضرائب على البساتين في دمشق، قال له القاضي شمس الدين بن عطا الحنفي: "هذا ما لا يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه، فقام مُغضبًا وتوقف الحال، وصقعت البساتين تلك السنة وهدمت الثمار جملة"⁴.

فقال في ذلك نور الدين ابن مصعب⁵ متحسرًا على تلك الغصون التي تبدل حالها بعدما تركها أصحابها، فأصبحت سوداء بعد أن كانت خضراء يانعة، ويعزي الشاعر السبب في ذلك أنها حزنت حزناً شديداً على أصحابها، فلبست ثوب الحداد لأنهم تركوها بلا عودة، وهذا حال محزن استطاع الشاعر تصويره بطريقة تثير المشاعر والأحاسيس.

[الكامل]

مَنْ بَعْدَ خُضْرَةٍ لَوْنِهَا بِسَوَادٍ
فَلِذَلِكَ قَدْ لَبِسَتْ ثِيَابَ حِدَادٍ⁶

لَهْفِي عَلَى حُلِّ الْغُصُونِ تَبَدَّلَتْ
وَأَظْنَهَا حَزْنَتْ لِفِرْقَةِ أَهْلِهَا

(1) عَطِطَ: تتابع الأصوات واختلافها في الحرب، وهي حكاية أصوات المُجَانِ، ينظر: ابن منظور، اللسان مادة (عطط).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 247/10.

(3) ينظر: محمود سليم، عصر سلاطين المماليك، المجلد الأول، 281/1.

(4) الكتبي، فوات الوفيات، 246/1.

(5) لم أعثر على ترجمته.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، 345/10.

ويتحسر مجد الدين ابن سحنون¹ أيضاً على هذا الحال، فيصور تلك الغصون بأثواب قد لفحها

البرد، وصبغت الريح أشجارها الكثيفة، وكأنها لبست هذا الثوب البالي أسفاً على ماليكها. [الكامل]

واهاً لأعطافِ الغصونِ وما الذي صنَعتهُ أيدي البردِ في أثوابِها
صبغت خمائلها الصِّبا وكأَنَّها قد ألبست أسفاً على أربابِها²

وبناءً على ما تقدم ظهرت الصورة السلبية لبعض السلاطين الأتراك، حيث اتضح أنّ الشعراء كانت لديهم الجرأة لانتقاد السلاطين أنفسهم، فأظهروا من خلال أشعارهم جوانب الفساد والظلم التي كان يمارسها السلاطين على الرعيّة فقد نهبوا خيرات البلاد، وفرضوا الضرائب، وأخذوا يتسابقون على الحكم دون مراعاة لشروط السلطنة، فعبر الشعراء عمّا يعترى نفوسهم من أجل القضاء على الظواهر السلبية في المجتمع.

(1) هو عبد الوهاب بن أحمد بن سحنون التنوخي، مجد الدين أبو محمّد، توفي سنة(694هـ)، هو شيخ الأطباء في دمشق، له شعر وأدب وعلم في بفقته الحنفية، كان خطيب النيرب، وطبيب مارستان الجبل بدمشق، له " مفرح النفس"، ينظر: الزركلي، الأعلام،4/180.

(2) الكنتي، الوافي بالوفيات، 246/1.

الفصل الثّاني

الدّراسة الفنّيّة

1. اللّغة

2. الأسلوب

3. الموسيقى

4. الصورة الشعريّة

أولاً: اللغة

تعدّ اللغة من العناصر المهمّة في بناء القصيدة، فلا بدّ للشاعر أن ينتقي من الألفاظ ما هو مألوف ومناسب للمعنى، وأن يلائم بين اللفظ والمعنى، وفي ذلك يقول ابن رشيق:

"اللفظ جسمٌ، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلّم المعنى، واختلّ بعض اللفظ كان نقصاً وهجنة عليه"¹، وأجود الكلام عند العرب ما كان سهلاً، جزلاً، لا يشوبه شيء من كلام العامة، والألفاظ الحوشية، وكرهوا أن يكون الكلام مبتذلاً وسوقياً²، وتلك النظريات في البلاغة عندما كانت الألسن فصيحة لا يشوبها لحن ولا عجمة.

اللغة بين الجزالة والركاكة:

لم تكن لغة الشعر في عصر دولة الأتراك كلها لغة واحدة، بل تعدّدت مستوياتها، فلغة الكتاب أو شعر الكتاب، غير لغة شعر الفقهاء والعلماء، وغير لغة الحرفيين والعوام الذين تدرّبوا على النظم سماعاً وتلقيناً لا علماً وتحصيلاً، فاللغة التي أصبحت سائدة هي مزيج مختلط بين الفصحى ولغة الحديث اليومي³.

1. العامية:

وشهدت اللغة في عصر الدولة التركية تطورات جديدة، بسبب تتابع الأسر الحاكمة من غير العرب، بالإضافة إلى معاقل الغزاة من الفرنجة والمغول في البلاد، حيث كان للأحداث التي جرت في هذا العصر سبباً في وجود الألفاظ الغربية المعربة، وعدم التحرج من استخدام التعبيرات المحكية في الكثير من الأغراض الشعرية⁴.

(1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر، 200/1.

(2) ينظر: العسكري، الصناعتين، 148، 149.

(3) ينظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 80/3.

(4) ينظر: عمر باشا، الأدب في بلاد الشام، 709.

ومما عثرت عليه الباحثة في ثنايا القصائد الشعرية ما يشير إلى تعبيرات وصياغات استخدمها الشعراء باللغة المحكية في أشعارهم.

ومن ذلك ما قاله ابن الوردي عندما أشار إلى كثرة الاحتفالات بالحكام الذين تولوا السلطنة " ما

بقيت أن تلحق أن تنبتنا " : [السريع]

فكم ملكٍ جاءَ وكم نائِبٍ
يا زينةَ الأسواقِ حتى متى
قد كرّروا الزينةَ حتى اللحى
"ما بقيت أن تلحق أن تنبتنا"¹
ومن ذلك أيضاً كلمة "براطيش" تعني النعل الخلق أو البالي²، في قول الشاعر علاء الدين

الوداعي: [الطويل]

لقد ألزم الكفار شاشات ذلّة
تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائما
ولكنهم قد ألزموكم براطيشا

2. الألفاظ الأعجمية:

استخدم العرب ألفاظاً أعجمية كثيرة، ولاسيما تلك الألفاظ ذات الصلة بالحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية، وذلك نتيجة اختلاط الأجناس والأعراق، وهذا أمر غير معيب ما دامت الألفاظ تؤدي المقصود وتظهر المراد، ففي الشعر العربي وفي عهد دولة الترك، وردت ألفاظ أعجمية كثيرة ولا سيما الفارسية منها والتركية، فكان للأحداث التي جرت، وظهور الفنون الشعرية المستحدثة، الأثر في استخدام الألفاظ الأعجمية والعامية⁵.

(1) ابن الوردي، الذيان، ص485.

(2) ينظر: البراطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنعل الخلق، ينظر: أحمد رضا، معجم متن اللغة، مادة (ب ر ط).

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 359/4.

(4) ينظر، الأدب العامي، أحمد الجمال، ص74

(5) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص 254-258

ومن الألفاظ الأعجمية الدخيلة، قول ابن أبي حجلة التلمساني عندما استخدم لفظ " الرنك " وتعني الشعار، حيث كان لكل سلطان أو أمير شعار خاص به يتميز به عن سواه¹ ، حيث قال:

[الطويل]

وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم إذا ما بدوا للناس تحت العصائب²
وقد استخدم الشعراء كلمة "المارستان " أو "البيمارستان" التي تعني مستشفى لمعالجة المرضى³،

[الطويل]

فيقول معين الدين ابن تُولُو⁴.

أنشأت مدرسةً ومارسنا
لنصح الأديان والأبدانا⁵
ولما خرج المظفر السلطان بيبرس الجاشنكير المنصوري من مصر هاربًا، قال الأدياء

[البسيط]

فذل الجشنيكير بلا لقاء وأمسى وهو ذو جاشنيكير⁶
لفظة الجاشنكير لفظة أعجمية تعني الرئيس، أو كبير متذوقي الطعام والشراب قبل أن يأكله
السلطان⁷.

ومن الألفاظ الأعجمية كلمة "القَبُق" وتعني القرعة العسليّة المعدّة لأن تكون بمثابة هدف للتدريب على الرماية، وهي من الألعاب المشهورة في عصر الأتراك⁸، كان يلعبها السلاطين والأمراء في أوقات الترفيه واللهو، قال الشاعر:

(1) ينظر: حسان حلاق ، المعجم الجامع،ص103.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،47/11

(3) ينظر: حسان حلاق ، المعجم الجامع،ص49،48.

(4) هو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن تولو أبو عمرو الفهري، معين الدين، المعروف بابن لؤلؤ، شاعر مصري، له ديوان شعر، توفي سنة (685هـ)، ينظر:البغدادي،هدية العارفين،ص655.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،277/7.

(6) المصدر نفسه،220/8.

(7) ينظر:حسان حلاق ،المعجم الجامع،ص59.

(8) ينظر: المصدر نفسه،ص171،170.

[البسيط]

والجيشُ بالقَبْقِ المنصور قد ولعوا بكلّ طائشةٍ والقوسُ مرناناً¹
واستخدم ابن أبي حجلة لفظتين أعجميتين عندما هنا الملك الأشرف شعبان بن حسين وأمه بزفاه
وهما: حَوْنَد وتعني السيد² ، وخاتون تعني المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه³، قال:

[الوافر]

هناءً بالهناءِ مَدَى الليالي وبالفرج المُقيم على التوالي
زفافٌ إن بدتْ فيه خوندٌ تجلّجٌ بالمسرةِ والجلالِ
وزفت قلعةُ الجبلِ التّهاني بخاتون المصونةِ في الحجالِ⁴
واستخدم الشاعر شهاب الدين محمود كلمة " المجانيق " وهي كلمة أعجمية، فالمنجنيق: يعني آلة
حربية يرمى بها الحجارة على القلاع والحصون والتجمعات المعادية من مسافة بعيدة⁵. [البسيط]

كأنما كلُّ بُرجٍ حوله فأكُّ من المجانيق يرمي الأرض بالشُّهْبِ⁶

3. تأثر الشعر بلغة القرآن الكريم:

كانت لغة القرآن الكريم منهلاً عذباً يرده كثير من الشعراء، ينهلون من ألفاظه، ويوردونها في سياقتها
الدلالية أو يعدلون بها إلى سياقات أخرى تجري مع مضمون ما ينظمون، وقد يلجأون إلى ألفاظ القرآن
في استخدامات إشارية، أو رمزية، أو تحويلية، أو مباشرة⁷.

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13.

(2) ينظر: أدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، ص58.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص51.

(4) ابن أبي حجلة، الديوان، ص198.

(5) ينظر: حسّان حلاق، المعجم الجامع، ص211.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، 406 / 13.

(7) محمّد ز غول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 81/3 .

ومن الأبيات التي فيها تأثر بلغة القرآن قول البوصيري، في مدح السلطان الأشرف خليل عندما

[مخلص البسيط]

فتح عكا " خيالاً تدك الجبال دكا" :

وأشبعوا الكافرين صكا

قد أخذ المسلمون عكا

خيلاً تدك الجبال دكا

وساق سلطاننا إليهم

لن يتركوا للفرنج ملكاً¹

وأقسم الترك منذ سارت

فقد اقتبس من الآية القرآنية، قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾²، فربط الشاعر بين ما جاء

في هذه الآية التي يخبر الله تعالى الناس عما يقع يوم القيامة من أهوال عظيمة، إذ إن الأرض تُزلزل وتتحرك، وبين قوة الخيل في المعركة فهي تزلزل الحصون وتدمرها.

وكذلك قول شهاب الدين محمود مدح الأشرف خليل فتح عكا، فقد اقتبس من القرآن الكريم قوله

[البسيط]

تعالى ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾³:

فأطفأت ما بصدر الدين من كرب

وجالت النار في أرجائها وعلت

كانت بتعليقها " حمالة الحطب"⁴

أضحت أبا لهب تلك البروج وقد

حيث يظهر في البيتين اقتباس لفظي يشير إلى استحضار الشاعر قصة أبي لهب وامرأته التي

كانت تجمع الحطب والشوك لتضعه في طريق الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكلاهما سيصليان ناراً

جزاء لما فعلا، وقد أجاد الشاعر الربط بين ما فعل السابقون، وما فعل اللاحقون، فقد قام الفرنجة في

تحصين أنفسهم بالأبراج الخشبية، فأحسنوا بناءها علواً وارتفاعاً وقوةً ومنعةً، غير أنها سرعان ما

عادت رماداً بعد أن حرقها المسلمون.

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج3/1/369 .

(2) الفجر، 21/89 .

(3) المسد، 4/111 .

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 410/13 .

وفي قصيدة سخر أحد الشعراء من السلطان محمد بن قلاوون الذي عُرف بحبه للقينات وغنائهن مستعيناً بما يقارب تسع عشرة سورة من القرآن الكريم، ونجد أنّ الشاعر قد بالغ في ذلك، حيث قال:

[الرجز]

لَمَّا أَتَى لِلْعَادِيَاتِ وَزُلْزَلَتْ
فَلْأَجَلِ ذَاكَ الْمَلِكِ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ
مَنْ كَانَتْ الْقَيْنَاتُ مِنْ أَحْزَابِهِ
تَبَّتْ يَدَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الدَّعَا
حَفِظَ النَّسَاءَ وَمَا قَرَأَ لِلْوَاقِعَةِ
وَأَتَى الْقِتَالُ وَفُصِّلَتْ بِالْقَارِعَةِ
عَطَّطَ بِهِ الدَّخَانُ نَارًا لِامِعَةِ
فِي اللَّيْلِ إِذْ يَغْشَى يَقَعُ فِي النَّازِعَةِ¹
ومن الاقتباسات الشعرية من القرآن الكريم قول شهاب الدين محمود عندما راح يُبشر السلطان

محمد بن قلاوون في النصر على الأعداء ليلة عيد الأضحى " فصلٌ لربّ النَّاسِ وأنحر "

[الطويل]

أَيَا مَلِكِ الْإِسْلَامِ وَابْنَ مَلِيكِهِمْ
أَتَاكَ بِعِيدِ النَّحْرِ سَعْدُكَ مَخْبِرًا
فَصَلِّ لِرَبِّ النَّاسِ وَانْحَرْ فَبَعْدَهَا
وَمَنْ أَيَّدَ الرَّحْمَنَ بِالنَّصْرِ جُنْدَهُ
لَنَا أَنْ عِيدَ النَّصْرِ يَا تَيْبِكَ بَعْدَهُ
سَتَنْحَرُ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ نَدَّهُ²
وهنا اقتباس من الآية الكريمة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾³، ليدلل على أنّ النحر سيكون نحران، النحر لعيد

الأضحى، والنحر للأعداء.

ومن صور استخدام ألفاظ القرآن الكريم، ما ورد في قول محيي الدين بن عبد الظاهر في رثاء الملك

[الخفيف]

الظاهر: قوله "من كلِّ فجٍّ عميقٍ":

صَاحَ هَذَا ضَرِيحُهُ بَيْنَ جَفْنِي
فَزُورُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ⁴

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 247/10.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج 471/1.

(3) الكوثر، 2/108.

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، 337/10.

وظّف الشاعر هذه الألفاظ من قوله تعالى ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ

عميق¹ وقد ربط الشاعر بين أهميّة الحج، بحيث يأتي إليه الناس رجالاً وركباناً من كل مكان بعيد،

وبين أهميّة المراثي، وعظمتها، يأتي الناس لزيارة قبره من كل مكان.

[الوافر]

وفي قول ابن أبي حجلة

فكم شرحت بقلعتكم صدوراً ويات الزهرُ يبسُمُ في الصّواني

توالى بالغنا فيها ليالٍ أعوذهنّ بالسبع المثنائي²

اقتبس الشاعر "أعوذهن بالسبع المثنائي" من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾³

فالسبع المثنائي يُقصد بها أعظم سورة في القرآن الكريم، وهي سورة الفاتحة، يقرأها الناس للحفاظ من كل شر وأذى.

يتضح من خلال النماذج السابقة، أنّ الشعراء قاموا بتوظيف الألفاظ والتراكيب القرآنيّة، لتدعم

نصوصهم، وتقويتها، فكان توظيفاً يقتضيه المقام.

ثانياً: الأسلوب

يعتبر الأسلوب وسيلة من وسائل نقل المعاني، وجودته قد ترقى بالمعاني المعتادة فتخرجها في كل

شكل يدعو إلى الإعجاب⁴.

يختلف الشعراء في التعبير عمّا يختلج نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، لذلك تختلف أساليبهم في

التعبير عن ذلك، فالغرض من الأسلوب الأدبي، إجادة الشعراء في التعبير عن المعنى، والتأثير،

والإقناع، والاجتذاب، كل حسب طريقته وأسلوبه في التعبير⁵.

(1) سورة الحج، 22/27.

(2) ابن أبي حجلة الديوان، ص 277.

(3) سورة الحجر، 15/88.

(4) ينظر: أحمد أمين، النقد الأدبي، ص 56.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 27.

" لقد شهد الشعر العربي أيام دولة التُّرك تطورًا خرج به في بعض الأحيان عن أساليبه التقليديّة، إذ إنّه لم يبق ملكًا للطبقة المثقفة، وإنما سعى إلى العوام من النَّاس¹ ".

– المحسنات البديعيّة:

ويعتبر فن البديع من أكثر المذاهب الفنيّة شيوعًا، وأكثرها استخدامًا، فمن المحسنات المعنوية التي وظّفها شعراء دولة التُّرك في أشعارهم:

1. الطباق:

هو الجمع بين الشيء وضده، كالجمع بين الليل والنهار، والبياض والسواد². وقد زخرت الأشعار في دولة التُّرك بهذا اللون البديعيّ، لأنّه يسهم في تحسين الكلام، وتوضيح دلالاته³. لقد قسم البلاغيون الطباق قسمة على أساس النفي والإثبات والنفي:

أ. طباق إيجاب: وهو الجمع بين لفظين مثبتين متضادين مثل: "أيقاظ" و "رقود"⁴.

ب. طباق سلب: وهو الجمع بين لفظ ومنفيه مثل: "يعلمون" و " لا يعلمون"⁵.

والقسمة الأخرى للطباق في ضوء نوع اللفظين المتضادين، حيث يأتي فيه اللفظان المتضادان اسمين، أو فعلين أو حرفين⁶ ومن ذلك، الطباق بين كلمتي "الجهر" و"السّر"، وهو طباق إيجاب،

[السريع]

وذلك في قول علاء الدّين الوداعيّ:

لصوِّ يسرقون النَّاسَ طرًا
وقومٌ يسرقون المالَ سرًا⁷

أرى الكتّابَ والحسابَ فيهم
فقومٌ يسرقون اللفظَ جهراً

(1) عمر باشا، الأدب في بلاد الشّام، ص655.

(2) ينظر: أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق، ص438.

(3) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص314.

(4) ينظر: أحمد مطلوب، البلاغة والتطبيق، ص439.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص439.

(6) ينظر: المرجع نفسه، ص440.

(7) رائد عبد الرّحيم، علاء الدّين الوداعيّ حياته وشعره، ص57.

وجاء الطباق بين لفظتي "الإصباح" و"الإمساء"، في دعاء سراج الدين الوراق للظاهر بيبرس، ذلك

[الرجز]

لبيان عظمة الممدوح:

دامت له الدنّيا ودامَ مَخْأدًا ما أقبِل الإصباحُ والإمساء¹

وطابق شهاب الدين الحلبي بين لفظتي "البيض"، و"السمر" عندما مدح الملك خليل بن قلاوون في

[الطويل]

فتح قلعة الروم، لتصوير قوة وشجاعة الممدوح، حيث قال:

وإنَّ يَمَمْتَ زُرْقُ العِدا سارَ تَحْتِها كَتائِبُ خُضْرٍ تَحْتِها البِيضِ والسَّمَرِ²
ومن المطابقات ما قاله، شهاب الدين محمود في عكا عندما فتحها الملك الأشرف حيث جمع بين

[البسيط]

لفظتي "البر" و"البحر"، لبيّن حصانة ومنعة القلعة.

سُورانٍ، بَرًّا وِبحرًا حَولَ ساحتِها دارا وأدناهُما أنأى مِنَ القُطبِ³
ومن ذلك أيضًا ما قاله شهاب الدين محمود في مدح السلطان لاجين الملك المنصور، وكان الطباق

[البسيط]

في لفظتي "منفصل" و"متصل" لبيّن الشاعر قيمة الممدوح:

أستغفر الله أين الغيثُ منفصلاً من بَرّه وهو طول الدّهر متصل⁴
واستخدم شهاب الدين محمود الطباق في لفظتي "طوعاً" و"كرهاً" ليثبت المعنى: [الطويل]

فكم وَطِئْتُ طَوعًا وَكرهاً جِأده معاقلَ قُرطاهِما السُّها والنعايمِ⁵
وكان استخدام الشعراء للطباق فيما سبق، لتوكيد المعنى وتوضيحه، فتتميّز الأشياء عند الجمع بين

الشيء وضده.

(1) العيني، عقد الجمان/1/383.

(2) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص220.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 407/13.

(4) المصدر نفسه، 388/24.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 152/7.

2. التورية:

وهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورّي عنه بالمعنى القريب¹، اهتم شعراء العصر التركي في "التورية"، واعتبروها من أطف الكلام². ومما عثرت عليه

من تورية، قول ابن نباتة في السلطان شعبان بن محمد بن قلاوون: **[مخلع البسيط]**

جَبِينِ سَلْطَانِنَا الْمُرْجَبِي
يَا بِهِجَةَ الْبَدْرِ إِذْ تَبَدَّى
مُبَارِكُ الطَّالِعِ الْبَدِيعِ
هَلَالُ شَعْبَانَ فِي رَبِيعِ³
فعندما نتأمل الأبيات نجد أنّ التورية في كلمة "شعبان" إذ إنّ المعنى القريب هو شهر شعبان، وأمّا المعنى البعيد يقصد به السلطان شعبان بن محمد بن قلاوون.

وفي موضع آخر يمدح ابن نباتة أحد الملوك ويهنئه بعيد الأضحى، فينجح في توظيف نكتة (النحر) ليحولها من معناها القريب "عيد النحر" إلى معناها البعيد "العنق" موضع القلادة من النحر،

قال: **[الكامل]**

تَهَنَّ بِعِيدِ النَّحْرِ وَابْقِ مَمْتَعًا
تَقْلُدْنَا فِيهِ قَلَائِدَ أَنْعَمِ
بَأَمْثَالِهِ مَا طَافَ بِالْبَيْتِ وَافِدِ
وَفِي النَّحْرِ أَوْلَى مَا تَكُونُ الْقَلَائِدُ⁴
ويستخدم ابن النقيب التورية في قوله "بماءٍ ومرعى" حيث المعنى القريب المعروف هو الشرب

والأكل، ولكن المعنى البعيد المراد هو الخمر والحشيش.

مَنْعَ الظَّاهِرِ الحَشِيشِ مَعَ الخَمِّ
قَالَ: مَا لِي وَلِلْمَقَامِ بِأَرْضِ
رِ قَوْلِي إِبْلِيسُ مِنْ مِصْرَ يَسْعَى
لَمْ أَمْتَعْ فِيهَا بِمَاءٍ وَمَرْعَى⁵

(1) ينظر: الحموي، خزنة الأدب، 3/184

(2) ينظر: خالد يوسف، الشعر أيام المماليك، ص 317 - 318.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 16/154؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/95.

(4) ابن نباتة، الديوان، ص 169.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، 10/344.

وعندما مدح شمس الدين محمد بن سلمان بن غانم السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون مورياً كلمة (الصلاح)، حيث إن الأول هو، صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو غير مقصود،

بل المقصود هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون. **[المتقارب]**

مليكان قد نُقِّبَا بالصلاح
فيوسف لا شك في فضله
فهذا خليلٌ وذا يوسفُ
ولكن خليلٌ هو الأشرف¹
3. التضمين:

وهو أن يودع الشاعر بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت، أو ربع بيت، بعد أن يوطئ له توطئة، بروابط متلائمة، بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له، وأحسن الإبداع ما صُرف عن معنى غرض الناظم الأول، ويجوز عكس البيت المضمّن بأن يجعل عجزه صدرًا وصدرة عجزًا².

وقد أكثر شعراء هذا العصر من استعمال هذا النوع من البديع، مستفدين من شعر من سبقهم من الشعراء³.

وقد استخدم الشعراء في عصر الدولة التركية تضمينات رائعة، دون أن يصرفوها عن معناها الأصلي في أغلب الأحيان، ومن الأمثلة على ذلك قول صلاح الدين الصفدي عندما رثى السلطان الصالح إسماعيل بن قلاوون قوله "إذا نحن أثينا عليك بصالح" حيث كان صالحًا، قليل الشر، قال:

[الطويل]

مضى الصالح المرجو للبأس والندى
فيا ملك مصر كيف حالك بعده
ومن لم يزل يلقي المنى بالمنائح
إذا نحن أثينا عليك بصالح⁴

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 404/13.

(2) ينظر: الحموي، خزانة الأدب، 106/4-107.

(3) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيام المماليك، ص309.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 220/9.

فالشطر الأول من البيت الثاني مُضمن من قول أبي نواس في مدح الخليفة الأمين بن هارون الرشيد، حيث كان هذا الخليفة عادلاً وصالحاً، وجعل أبو نواس ممدوحه الفرد الأُوحد في الدنيا، فلا أحد مثله في الصلاح والعدل.

[الطويل]

إذا نحن أثينا عليك بصالحٍ فأنت كما نُثني وفوقَ الذي نُثني¹

[الكامل]

وقال ابن أبي حجلة في الملك الناصر:

بيوتٌ مديحة بالطيبِ فاقتُ مغاني الشعبِ طيباً في المغاني²
الشاعر فضّل بيوت الشعر التي قيلت في مدح الملك الناصر قلاوون وتحدّثت عن طيب سمعته على أفضل الأماكن وهو شعب بَوّان³ الذي يعتبر أحد عجائب الدنيا السبع، مضمناً قوله "مغاني

[الكامل]

الشعبِ طيباً في المغاني" من قول المتنبي:

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ⁴
وهنا يصف المتنبي شعب بَوّان ويقول: أنّ هذا المكان في فضله على الأماكن الأخرى كونه أجمل الأماكن مثل فصل الربيع، فهو أفضل الفصول في السنة.

(1) أبو نواس، الديوان، ص5

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص268.

(3) هو أحد الواضع المنتزهة المشتهرة بالحسن وكثرة الأشجار وتدفق المياه، ينظر: الحموي، معجم البلدان، 1/503

(4) المتنبي، الديوان، ص541.

ثالثاً: موسيقى الشعر:

الموسيقى الشعرية: هي مراعاة التناسب بين الوزن والقافية في أبيات القصيدة الواحدة، بحيث تكون على بحر من البحور الشعرية. والشعر: هو كلام موزون مقفى له معنى¹.

1. الموسيقى الخارجيّة:

هي الموسيقى التي تعتمد على القالب أو البحر الشعري المستخدم، وهي ما يمسّ الناحية الشكلية في الشعر، فهي تتعلق بالالتزام بالبحور والقافية والتصريح².

أ. البحور

يستخدم الشعراء الأوزان التي تألفها النفس، وتستريح لها الأذن فيرددونها ويكثرون منها، وفي المقابل هناك أوزان لا يستخدمها الشعراء إلا في القليل النادر لأنها ثقيلة على السمع، فالأولى تسمى بالأوزان القومية، والأخرى تكون بقايا أوزان قديمة قد انقرضت أو كادت، أو تكون مما يتفكه به الشعراء من أوزان مخترعة، لم يسبقوا إليها³.

ورد في عصر الدولة التركيّة كمّ من الأشعار التي قيلت في السلاطين في الفترة التي تناولتها في هذه الدراسة، وقد قُمتُ باختيار المادة الشعرية الموجودة في الدراسة من مختلف المصادر، والجدول الآتي يبيّن النسب المئوية للأشعار والقصائد التي وقفت عليها.

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص19

(2) ينظر: محمود قحطان، أساسيات الشعر وتقنياته، ص123.

(3) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص186.

النسبة المئوية	عدد مرات استعماله في الدراسة	البحر	
28.05%	65	الطويل	1
22.35	52	البسيط	2
22.8%	53	الكامل	3
7.7%	18	الخفيف	4
5.6%	13	السريع	5
4.35%	10	الوافر	6
3.0%	7	الرجز	7
0.8%	2	الرمل	8
0.4%	1	المتقارب	9
0.4%	1	المنسرح	10
0.4%	1	المجتث	11
1.75%	4	مخلع البسيط	12
0.4%	1	مجزوء الكامل	13
0.4%	1	مجزوء الرجز	14
0.4%	1	مجزوء الوافر	15
0.8%	2	مجزوء الخفيف	16
100%	233	المجموع	17

يوضح الجدول السابق البحور الشعريّة التي وردت في هذا البحث، وهي مرتبة ترتيبًا تنازليًا من

الأكثر استخدامًا إلى الأقل، وذكرت فيه اسم البحر، وعدد المرات التي تكرر فيها، فالمجموع، فالنسبة

المئوية.

والتأخر إلى الجدول يلاحظ أنّ البحور الأكثر تداولاً هي: الطويل، والبسيط، والكامل، والخفيف، والسريع، والوافر، ويحتلّ بحر الطويل المرتبة الأولى من حيث الترتيب الذي جاء في الجدول، ونلاحظ أيضاً أنّ الجدول قد خلا من البحر المديد، والهجج، والمتدارك.

ب. القوافي

هي أصوات تتكون في أواخر الأَشْطَر أو الأبيات من القصيدة، ولا بدّ من تكرارها، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها¹.

1. القافية المقيدة:

هي ما كان فيها حرف الروي ساكناً، سواء أكانت مردّفة أم خالية من الرفع²، ومن ذلك ما قاله

محبي الدّين بن عبد الظاهر يهنئ الظاهر بيبرس الراء : [مجزوء الرجز]

هُنَاتٌ بِالْعِيدِ وَمَا عَلَى الْهِنَاءِ أَقْتَصِر
بَلْ إِنِّهَا بِشَارَةٌ لَهَا الْوَجُودُ مُفْتَقِرٌ³
قُيدت القافية الخالية من الرفع بتسكين حرف الراء .

وفي قول أحدهم حين مدح الملك الأشرف شعبان بن حسين: [لزل]

كوكب السعد غاب من القلعة وهلاؤوقد انطفأ بأمان
ورُحِّلَ قَدِ قَارِنِ الْمَرِيخِ لكسوف شمس الضُّحى شعبان⁴
قام بتقييد القافية وتسكين حرف النون، مع وجود حرف الرفع.

(1) ينظر: إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص244.

(2) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص164

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 91/8.

(4) المصدر نفسه، 66/11.

2. القافية المطلقة:

هي ما كانت متحركة الروي، أي بعد رويها وصل بإشباع¹، ومن الأمثلة عليها قول شهاب الدين

[البسيط]

محمود:

الله أكبر هذا النصر، والظفر
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت
هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
إلى الكواكب ترجوه وتنتظر²
هنا حرك الشاعر حرف الروي الراء، بالضمّة، وأشبعها فصارت واو مدّ، وهذا ما يعرف "بالوصل".

[الكامل]

ومنها أيضاً قول علاء الدين الوداعي:

لئن ادعى ميداننا شرفاً إلى
أو ما ترى الأمراء في تعميّره
شرفيه لم ينسب إلى الإسراف
أضحوا فعول مجارف وقفاف³
حركة الروي فيما سبق الكسرة، وهذا جعل القافية مطلقة غير مقيدة.

– مكونات القافية:

1. الروي: هو حرف أساسي ترتكز إليه، وهو آخر حرف صحيح في البيت، ويكون إما ساكن، أو

متحرك، وعليه تُبنى القصيدة، وإليه تُنسب، فنقول ميمية، أو عينية، أو سينية، وهكذا⁴، وقد تمّ

ذكر أمثلة عليه في الحديث عن القافية المقيدة والمطلقة.

2. الوصل: وهو نوعان⁵

أ - حرف مدّ يتولّد عن إشباع حركة الروي، فيكون ألفاً أو ياءً أو واوًا.

[الكامل]

يقول ابن أبي حجلة في الملك الناصر:

بيوت مديحه بالطيب فاقت
مغاني الشعب طيباً في المغاني⁶

(1) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص164.

(2) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص213.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 406/13.

(4) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص137.

(5) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص143.

(6) ابن أبي حجلة، الديوان، ص268.

الوصل هو حرف الياء الممدود في كلمة المغاني.

[الوافر]

وقوله:

ورأيي كلهُ حسنٌ بديعٌ
فمذُ أقصى العدا عن مصرٍ أمست

حوى ببيانه لطفَ المعاني
تدينُ له الأقصى والأداني¹

الوصل هو حرف الياء الممدود في كلمتي "المعاني" و"الأداني"

ب - هاء ساكنة أو متحركة تلي حرف الروي.

[السريع]

ومن الأمثلة على ذلك، قول علاء الدين الوداعي:

إن أمرَ السلطانِ في جأقي
فإنه قد غارَ لَمَّا رأى

بهدم ما ضاقَ ميدانهُ
غيرَ بيوتِ الله جيرانهُ²

حرف الروي هو النون وحركته الفتحة، والهاء المتحركة هي الوصل.

[الكامل]

وأيضاً قول أحد الشعراء:

لَمَّا أتى للعادياتِ وزُلزِلتِ
فأَجَلِ ذاكِ المُلكِ أضحى لم يكن

حَفِظَ النَّساءَ وما قرأ للواقعة
وأَتى القِتالَ وفُصِّلَتِ بالقارعة³

حرف الروي العين المتحركة، والهاء الساكنة هي الوصل

3. الخروج: يراد به إشباع هاء الوصل، سواء أكانت مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة⁴، ومثال ذلك:

[الكامل]

وسِعتِ عواطفُك الجُناةَ بأسرهم
وجزيت مرتكب الإساءة منهم

وأفَلتِ كلاً منهم عثراتِهِ
الحسنى فأصبح شاكرًا لزلاتِهِ⁵

أشبع الشاعر حركة هاء الوصل بالكسرة في كلمتي "عثراتِهِ، وزلاتِهِ".

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص275.

(2) راند عبدالرحيم، علاء الدين الوداعي، ص97.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 10/247.

(4) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص153.

(5) العيني، عقد الجمان، 2/343.

ومنه قول سراج الدين المحار:

[الكامل]

يا خيرَ مَنْ عَمَرَ الْوَرَى بِصَلَاتِهِ
وقيامتهِ وزكاتهِ وصلاته¹

شَهْرُ الصَّيَامِ أَتَاكَ فِي بَرَكَاتِهِ
سَيْرِيكَ فِيهِ اللَّهُ أَجْرَ صِيَامِهِ
4. الرَّذْف:

هو حرف مدّ يكون قبل حرف الرويِّ سواء أكان هذا الروي سكانيًا أو متحرّكًا².

[البسيط]

ومن الأمثلة عليه قول ابن دانيال الموصلي:

سما بها وعلى ظني سليمان
من كلما تتمنى النفس ألوان³

وأنت يا أشرفَ الأملاكِ شمسُ علا
وتحت دهلِيْزك الزاهي بزركشيه
جاء حرف المد في كلمتي "سليمان" و"ألوان"

[الخفيف]

ومن ذلك قول شهاب الدين مجمود:

ما غدا للحسام فيه انتقام
له وأعتلى به الإسلام⁴

خَيْرَ فَتْحٍ جَرَّتْ بِهِ الْأَعْلَامُ
وَأَعَزَّ التَّأْيِيدُ مَا خَضَعَ الْكُفْرُ

جاء حرف المد قبل حرف الرويِّ في كلمتي "انتقام" و"الإسلام".

[البسيط]

ومنه أيضًا، قول شمس الدين المعروف بابن البياعة⁵:

وكلُّ قُطْرٍ عَلَّتْ فِيهِ التَّبَاشِيرُ
والخيرُ متَّصِلٌ وَالِدُنَّ مَجْبُورُ⁶

فمصرُ والشام كلُّ الخيرِ عمهما
فالكونُ مبهتجٌ والخلقُ مُبْتَسِمٌ

ورد حرف المد في كلمة "التبشير" وهو الياء الممدود، وفي كلمة "مجبور" وهو الواو الممدود.

وقول علاء الدين الوداعي:

(1) سراج المحار، ديوانه، 45.

(2) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص 155.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13.

(4) عدل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص 374.

(5) لم أعثر على ترجمته.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 73/8.

[الرمل]

إِنَّمَا الْعَادِلُ سُلْطَانُ الْوَرَى عندما جاد بتشريف الجميع
مِثْلُ قَطْرِ أَصَابٍ قُطِرًا مَاحِلًا فكسا أَعْطَافَهُ زَهْرُ الرِّيْعِ¹
فالرويّ هو حرف العين المتحرك وجاء قبله الرفع وهو حرف الياء الممدود.

[السريع]

ومنه قول سراج الدّين الوراق:

يَا حَبْذَا الْمَلِكُ الَّذِي مُلْكُهُ إلى أَقَاصِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ
مَا سُمِّيَ الظَّاهِرُ إِلَّا وَقَدْ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ²
فالروي هو حرف النون المتحرك، والرفع حرف الياء الممدود في كلمتي "الصين" و "الدّين".

5. التأسيس:

ألف بينها وبين الرويّ حرف واحد صحيح³ ، ومن أمثلة ذلك قول شهاب الدّين محمود:

[الطويل]

مَمَالِكُ حَاطَتِهَا الرِّمَاحُ فَكَمْ سَرَتْ على وَجَلٍ فِيهَا الرِّيحُ النُّوَاسِمُ
تَبِيَتْ مَلُوكُ الْأَرْضِ وَهِيَ مُنَاهِم وليس بها منهم مع الشوق حالم⁴
حرف التأسيس هو الألف التي يليها حرف واحد قبل حرف الروي، ففصل بينها وبين حرف الروي
بالسين في كلمة "النواسم، وباللام في كلمة " حالم".

[الطويل]

ومنه أيضًا قول ابن أبي حجلة في السلطان حسن:

وَإِنْ حَاضِرَتْ بِالشَّعْرِ حَضْرَةَ أَنْسِكُمْ فَكَتَبُكُمْ كَمْ لِي بِهَا مِنْ مَحَاضِرِ
وَبِالرَّغْمِ مَنِّي إِنَّ شِعْرِي سَائِر وَإِنِّي مَقِيمٌ بَعْدَهُ غَيْرَ سَائِرِ
التأسيس هنا ألف بينها وبين حرف الروي حرف الضاد في كلمة "محاضر"، والهمزة في كلمة "سائر".

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 319/24.

(2) المصدر نفسه، 344/10.

(3) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص161.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 348/10.

وقول الصفدي:

[الطويل]

مضى الصالح المرجو للباس والندى
فيا مُلك مصر كيف حالك بعده
ومَن لم يزل يلقي المني بالمنائح
إذا نحن أثنينا عليك بصالح¹
التأسيس الألف بينها وبين حرف الهمزة في كلمة " المنائح"، واللام في كلمة "صالح".

ومن عيوب القافية التي عُثر عليها في هذه الدراسة:

الإيطاء: هو تكرار مفردة الروي بلفظها ومعناها قبل سبعة أبيات، وهذا يدل على ضعف لغة الشاعر وقلة إلمامه بها²، وقد كان ما وجدته في شعر دولة التُّرك قليلاً.

[الكامل]

ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر:

أبدا عليك تحيةً وسلام
ويعود بعد ستة أبيات ليكرر كلمة الإسلام
يا قَبْرَ مَنْ فُجِعَتْ بِهِ الْإِسْلَامُ³
الظاهرُ السلطان من بِمصابه
هُدَى الْهَدَى وتضعُضُعُ الْإِسْلَامُ
فالبيت الأوّل قافيته (الإسلام) ويقصد به الدين الإسلامي، والبيت الثاني وترتيبه السادس
قافيته (الإسلام)، ويقصد به الدين الإسلامي، وهذا يعدّ إيطاءً.

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 220/9.

(2) ينظر: عبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية، ص167.

(3) العيني، عقد الجمان، ص183.

2. الموسيقى الداخلية:

هي الموسيقى التي تتولد بفضل انسجام الحروف والكلمات والجمل والعبارات وهو ما يمسّ جوهر ومضمون الشعر، فهي تتعلق بالجناس، والتكرار، ورد العجز على الصدر، وغيرها¹.

أ. الجناس:

هو التشابه بين لفظين، وهو نوعان: تام وناقص، أمّا التام ما اتفق اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئتها، وترتيبها، وغير التام ما اختلف اللفظان في الأمور السابقة²، وقد نرى هذا اللون من البديع في أشعار هذا العصر على مختلف ألوانه وأنواعه.

1. الجناس التام:

ومن الأمثلة على الجناس التام، قول ابن دانيال الموصليّ:

[الطويل]

لَقَدْ كَانَ حَدُّ السَّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ خَفِيفَ الْأَذَى إِذْ كَانَ فِي شَرَعِنَا جَلْدًا
فَلَمَّا بَدَأَ الْمَصْلُوبُ قُلْتُ لِصَاحِبِي أَلَا تُبْ فَإِنَّ الْحَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْحَدًّا³
لقد جانس الشاعر بين (الحدّ) الأولى وتعني العقوبة و(الحدّا) الثانية والتي تعني الغاية، وهذا أحدث زيادة في النغم، وأغنى المعنى.

ومن الجناس التام قول الشيخ شمس الدّين الدّاعي.

[الكامل]

الْمَلِكُ عَادَ إِلَى حِمَاهِ كَمَا بَدَأَ وَمَحَمَّدٌ بِالنَّصْرِ سِرٌّ مُحَمَّدًا⁴
جاء في كلمتي " محمد، ومحمد" فالأولى يقصد بها السلطان محمد بن قلاوون والثانية يقصد بها

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

(1) ينظر: محمود قحطان، أساسيات الشعر وتقنياته، ص123.

(2) ينظر: القزويني، الإيضاح، ص288-293.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 343/10.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 6/9.

ومن ذلك أيضاً ما قيل في هجاء المظفر ببيرس:

[البسيط]

لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرُ عَنْ أُمِّم لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا¹
حيث وردَ الجناس التام في كلمتي " تَوَلَّى، وتَوَلَّى " فالأولى تعنى حينما تَوَلَّى الحكم وتقلّده، والثانية جاءت بمعنى أدبر، وهذا زاد من النغم الموسيقي:

يقول ابن أبي حجلة:

[الطويل]

تَوَلَّيْتُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ إِمَارَةً بغير سَوَالٍ وَالْخَمِيسُ عَرْمَرَمٌ²
قد جانس ابن أبي حجلة بين كلمتي " الخميس " و"الخميس": فالأولى تعني اليوم السادس من أيام الأسبوع، والثانية تعني الجيش، وهذا أحدث أثر موسيقي، وأغنى المعنى.
وما يعتبر من الجناس التام، الجناس المركب المتشابه: يكون فيه أحد الركنين كلمة مفردة، والأخرى مركبة من كلمتين، ويكون التشابه بينهما لفظاً وخطاً³.

كما جاء ، في قول ابن أبي حجلة:

[الوافر]

وَكَمْ لِي فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ مَدْحٌ وَلَكِنْ مِثْلَ مَدْحِي فِيهِ مَا لِي
وَطَابَتْ لِي التَّجَارَةُ فِيهِ لَمَّا غَدَوْتُ وَمَدَحِهِ لِي رَأْسُ مَا لِي⁴
حيث جاء الجناس المركب المتشابه في الكلمة المركبة من " ما " و " لي " والكلمة المفردة " مالي " ومعناها النقود.

2. الجناس غير التام (الناقص)

أ. الجناس اللاحق: هو ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه⁵

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/9.

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص231.

(3) ينظر الحموي، خزنة الأدب، 58/1.

(4) ابن أبي حجلة، الديوان، ص198.

(5) ينظر الحموي، خزنة الأدب، 71/1.

وذلك في قول علاء الدين الوداعي:

[مجزوء الكامل]

قَلِّ لِلْمَلِيكَ أَمَدَهُ رَبُّ الْعَلَامَةِ بِرُوحِ
إِنَّ الْمَلِيكَ وَكَأَنَّهُ لَا بِالنَّصِيحِ وَالْأَفْصِيحِ¹

فالجناس اللاحق في كلمتي "النصيح" والفصيح" فمخرج "النون" يختلف عن مخرج "الفاء"،

ومنه أيضاً قول محيي الدين بن عبد الظاهر:

[البسيط]

أَهَا لَهَا حَسْرَةٌ وَاسْتَبَسْرَتْهَا أَسْدُ الْعَرِينِ وَدَاسَتْ كُلَّ عَرِينِ²

إذ استخدم لفظتي "واست وداست" والواو والدال مختلفان في المخرج، وهذا وفر نغم موسيقي جميل.

ب. الجناس المضارع:

هو ما أبدل من أحد ركنيه حرف ويكون متشابه في المخرج³، وذلك ورد في قول شهاب الدين

[الكامل]

محمود:

رَشَتْ دَمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطْرُ مِنْهُمْ عَلَى الْجَيْشِ السَّعِيدِ غُبَارُ⁴

في كلمتي "الصَّعِيدِ والسَّعِيدِ" فالسين والصاد من المخرج نفسه، وهذا أدت تناغم موسيقي، زاد البيت

جمالاً للتقارب بين الحرفين:

[البسيط]

ومن الجناس المضارع ما جاء في قول محيي الدين بن عبد الظاهر:

الْيَوْمَ آخِرُ تَأْمِيلِي وَتَأْمِينِي وَأَوَّلُ التَّكْلِ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ⁵

جاء في لفظتي "تأْمِيلِي وتَأْمِينِي" فاللام والنون من نفس المخرج فهما من الأحرف الذلقية⁶. وهذا

أثرى النغم الموسيقي وزاد من جماله.

(1) رائد عبد الرحيم، علاء الدين الوداعي حياته وشعره، ص56

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 393/16.

(3) ينظر الحموي، خزنة الأدب، 72/1.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 335/10.

(5) المصدر نفسه، 393/16.

(6) ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص279.

[الخفيف]

وفي قول أحد الشعراء في المظفر قطز :

ملكُ جاعنا بعزمٍ وحزمٍ فاعتزنا بسُمره وبيضه¹
وردت كلمتيّ " حزم، وعزم " وهما جناس مضارع فالعين والحاء من نفس المخرج إذ تعتبر من الأحرف
الحلقية²، وهذا أحدث جرسًا موسيقيًا جعل المتلقي يرتاح لسماعه.

ج. الجناس المحرّف: وهو ما اتفق ركناه في عدد الحروف وترتيبها واختلفا في الحركات³

ومن ذلك قول شهاب الدّين محمود يمدح الملك خليل بن قلاوون، فاستخدم لفظتي " الظفر، والظفر ":

[الطويل]

ليوثٌ من الأتراكِ آجامها القنا لها كلُّ يومٍ في ذرى ظفر ظفر⁴
ومن قوله في مدح الملك الأشرف عندما فتح عكا:

[البيسط]

جيشٌ من التُّركِ تركِ الحربِ عندهمُ عازٌّ وراحتهمُ ضربٌ من الضَّربِ⁵
حيث استعمل لفظتيّ " التُّركِ والتُّرك " فالأولى تعني دولة التُّرك، والثانية تُعني عدم الأخذ بالحرب
والميل إلى السِّلْم، وكذلك في لفظتيّ " ضرب وضرب " جناس تام فالأولى تعني القوة والبطش والثانية
تعني العسل الأبيض⁶.

ومن الأمثلة على الجناس المحرّف قول علاء الدّين الوداعي في السلطان كتبغا المنصور

[الرمل]

إنما العادلُ سلطانُ الوَرَى عندما جاد بتشريفِ الجميعِ
مثلُ قَطْرِ صابٍ قُطِرًا ماحلاً فكسا أعطافَهُ زهرُ الربيعِ⁷

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 76/7.

(2) ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص 278.

(3) ينظر: الحموي، خزانة الأدب، 87/1.

(4) الكتبي، فوات الوفيات، 415/1.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، 407/13.

(6) ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة "ضرب".

(7) المصدر نفسه، 319/24.

فالجناس المحرّف لفظتا في " قَطْر، قُطْر"، فالأولى تعني المطر، والثانية تعني منطقة أو مكان، وهذا أحدث نغم موسيقى.

د. الجناس المطرّف: وهو ما زاد أحد ركنيه على آخر حرفاً في طرفه الأوّل أو الآخر¹.

ومن الأمثلة على ذلك النوع من الجناس، قول سراج الدّين الوراق عندما مدح السلطان صالح بن

محمد بن قلاوون : [الطويل]

وعرّف خيراً كان منها منكرًا ونكّر شيئاً كان منها معرّفًا²
جمع بين كلمتي "عرّف ومعرّف" وكذلك بين "نكّر، ومنكر":

هـ. الجناس المذيل: وهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً أو أكثر في آخره فصار كالذيل³

ومثال عليه قول ابن النقيب: [الطويل]

ولمّا ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيّار عن جريانه إلى حيث غدنا بالغنى والغنائم⁴
جاء الجناس المذيل في لفظتي "القوى والقوائم" و "الغنى والغنائم" في وهذا زاد الأبيات جمالاً، وجعل السامع يطرب لسماع هذه الأبيات.

ومن الأمثلة على الجناس المذيل، ما جاء في قول السراج الوراق حيث استخدم لفظتي "الجاري

والجاريه" و "الماشي والماشية": [السريع]

يا ويحّ سيس أصبحت نهباً كم عوّق الجاري بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسالك يستوقف الماش بها الماشية⁵

(1) ينظر: الحموي، خزنة الأدب، 84/1.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 393/16.

(3) ينظر: الحموي، خزنة الأدب، 70/1.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، 335/10.

(5) المصدر نفسه، 345/10.

و. **الجناس المقلوب**: وهو ما اشتمل كل واحد من ركنيه على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص، ويخالف أحدهما الآخر في الترتيب¹.

[البسيط]

ومن ذلك قول شهاب الدين محمود :

كَم رَامَهَا وَرَمَاهَا قَبْلَهُ مَلَكٌ
جَمُّ الْجِيوشِ فَلَمْ يظْفِرْ وَلَمْ تُحِبْ²
حيث تمّ قلب الحروف في لفظتي "رامها ورماها"

ي. **الجناس المُكْتَنَف**: هو ما كان الحرف الناقص في وسط أحدهما³

[الوافر]

قول علاء الدين الوداعي :

أرى الأَمْرَاءَ قَدْ جَدَّوْا وَجَادُوا
وَشَدَّوْا فِي بِنَائِهِمْ وَشَادُوا⁴
حيث استخدم الشاعر لفظتي "جدّوا وجادوا" وكذلك لفظتي "شدّوا وشادوا":

ومن الأمثلة على الجناس المُكْتَنَف ما قاله شهاب الدين محمود في مدح السلطان الظاهر بيبرس:

[الطويل]

مَلِيكٌ لِأَبْكَارِ الْأَقَالِيمِ نَحْوَهُ
حَنِينٌ كَذَا تَهَوَّى الْكِرَامَ الْكِرَائِمُ⁵
جاء الجناس المُكْتَنَف في لفظتي "الكرام، والكرائم":

وهذه الشواهد التي جاء بها الشعراء على الجناس في الشعر أيام دولة الترك، وفُرت النغم الموسيقي،

حيث ترتاح له الأذن عند سماعه، وعملت على إيفاء المعنى وتوضيحه.

(1) ينظر: الحموي، خزنة الأدب، 92/1.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 407/13.

(3) ينظر: عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية، ص493.

(4) الصفدي، الوافي في الوفيات، ج406/13.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 152/7.

ب. رد العجز على الصدر:

وهو أن يأتي بلفظين مكررين أو متجانسين، فنجعل أحدهما في أول الجملة والآخر في آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر، والثاني في الشطر الآخر¹.

[الطويل]

ومثاله قول علاء الدين الوداعي:

لقد أَلْزَمُوا الكُفَّارَ شَاشَاتِ ذِلَّةٍ تَزِيدُهُمْ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ تَشْوِيشًا²
رَدَّ (تشويشاً) في عجز البيت على (شاشات) في حشو الشطر الأول، فتكرار حرف الشين في الكلمتين

[السريع]

زاد البيت وقعاً موسيقياً ، قال أحد الشعراء:

تُرى مَنْ الظالمِ فيكم لنا فلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظالمِ³
وهنا رَدَّ (الظالم) في عجز البيت على (الظالم) في حشو الشطر الأول.

ومنه قول الشاعر:

وَأَسْهَرُوا أَعْيُنًا فِي اللَّهِ مَا رَقَدُوا أَكْرَمَ بِقَوْمٍ إِذَا نَامَ الْوَرَى سَهَرُوا⁴
رد العجز (سهروا) على صدر البيت (أسهروا) وهذا أضفى على البيت وقعاً موسيقياً.

[البسيط]

ومن هذا القبيل قوله:

أَغْضَبْتَ عَبَادَ عَيْسَى إِذْ أَبَدْتَهُمْ لِلَّهِ أَيُّ رَضَى فِي ذَلِكَ الْغَضَبِ⁵
رَدَّ عجز البيت (الغضب) على أول البيت من الشطر الأول (أغضبت).

[الكامل]

ومنه أيضاً قول سراج الدين الوراق

وَعَرَفَ خَيْرًا كَانَ مِنْهَا مَنْكَرًا وَنَكَّرَ شَيْئًا كَانَ مِنْهَا مُعْرِفًا⁶
رد عجز البيت (مُعْرِفًا) على صدر البيت (عَرَفَ).

(1) ينظر: فضل عباس، البلاغة فنونها وأفانها، 309/2.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 110/8.

(3) المصدر نفسه، 101/9.

(4) العيني، عقد الجمان، 273/4.

(5) الصفدي الوافي بالوفيات، 406/13.

(6) المصدر نفسه، 393/16.

ج. التكرار:

هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف، أو المدح، أو الذم، أو التهويل، أو الوعيد، أو الإنكار، أو التوبيخ، أو الاستبعاد، أو لأغراض أخرى¹.

1. تكرار الأسماء:

يعمد ابن أبي حجلة في مدحه للسلطان الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي تكرار كلمة (مَلَك)

[الكامل]

لتأكيد المدح.

مَلَكٌ غَدَا لَللَّهِ فِيهِ سَرِيرَةٌ
مَلَكٌ إِذَا مَا النِّيلُ سَاجِلٌ كَفَّهُ
مَلَكٌ غَدَا عِنْدَ النُّجُومِ بِقَلْعَةٍ
مَلَكٌ لَهُ قَصْرٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ
وسريره بقدمه مسرور
أمست أصابعه وهنّ بحور
فيها الأحبة في البروج بدور
والفرش فيه جنّة وحريز²

ويكرر ابن دانيال الكحال تأكيد اسم الإشارة (أنت) ليؤكد أن لا أحد مثله، وزيادة على التأكيد يذكر

[الخفيف]

الاسم.

قَد رَأَيْنَا وَأَنْتَ أَنْتَ صَلاَحُ الدِّ
أَمَّا مَحْيِي الدِّينِ بِنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ، فيكرر كلمة (قَبْرٌ) ليؤكد لنا عظمة صاحب هذا القبر، وأنّ له

[الكامل]

مناقب عظيمة.

قَبْرٌ بِهِ تَتَضَاعَفُ الأَقْسَامُ مِنْ
قَبْرٍ بِهِ تَتَوَسَّلُ الأَمَالُ فِي
قَبْرِ الَّذِي قَلَعَ القَلَاعَ
قَبْرِ الَّذِي قَهَرَ التَّارَ فَأَصْبَحُوا
بركاته وتؤكد الأقسام
حاجاتها وتصرف الأحكام
سكانها وله الحصون خيام
ولهم إذا ناح الحمام حمام⁴

(1) الحموي، خزنة الأدب، 361/1.

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص 110.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 405/13.

(4) المصدر نفسه، الحمام: المنية والفراق، ينظر: أحمد رضا، متن اللغة، مادة (حمام)

2. تكرار الأفعال: كرر شهاب الدين محمود في بيته لتوظيف رد العجز (قتلوا) على الصدر (يقتلوا)

[البسيط]

لما له من نغم موسيقي.

إن يقتلوا الصّيد في أيدي الجوارح بل جوارح اللّحظ إن يرموا بها قتلوا¹
وكرر علاء الدّين الوداعي الفعل (عاد) عندما أراد الربط بين عودة السلطان الناصر إلى الحكم،

[السريع]

وعودة الملك سليمان إلى حكمه.

عاد إلى كرسيه مثلما عاد سليمان إلى الكرسي²
3. تكرار الحروف:

تكرار حرف التشبيه الكاف في مدح صفي الدين الحلّي للسلطان الناصر محمد قلاوون ليدلّل على

[الكامل]

تعدد الصفات الحميدة التي يتحلّى بها الممدوح.

كالليث يحمي غابته بزئيره طورا، ويُنشَبُ في القتيصِ مَخالبا
كالسيف يبيد للنواظر منظرا، ويَمْضِي في الهياجِ مضاربا
كالبحر يهدي النفوس نفائسا منه، ويبيد للعيون عجائبا³
4. تكرار الكلمة:

وكرر شهاب الدّين العزايّ كلمة (مرحبا)، عندما تغنّى بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون

[الخفيف]

ليؤكد على شدة ترحيبه بهذا السلطان العظيم.

مرحبا مرحبا بأوفى ملوك الـ أرض عدلا في ملكه وسادا⁴
ويستخدم الشاعر شهاب الدين محمود التكرار ليدلّل على الجناس، فكلمة القدر تعني الجاه وكلمة

[البسيط]

القدر تعني ما يقدره الله ويحكم به.

وكيف يسمو إليها من تأخر عن إسماعده منجداك القدر والقدر⁵

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، 389/24

(2) رائد عبد الرحيم، علاء الدين الوداعي، ص121.

(3) صفي الدين الحلّي، الديوان، ص96.

(4) العيني، عقد الجمان، 158/5.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 270/7

رابعًا: الصورة الشعريّة:

تُشكل الصورة الشعرية أسلوب الشاعر في التفكير والتعبير، وتكشف عن إحساسه العميق وشعوره المكثف، وإحساسه الفياض، فلا يتكئ فيها على التعبير المباشر عن مشاعره، وإنما يميل إلى اللغة الإيحائية الحدسيّة، لتعبّر عن المدى العميق لانفعالاته ومواقفه الذاتيّة، ويتفاوت الشعراء في هذا تبعًا لاختلاف مواهبهم وقدراتهم الخاصة¹، ويعتبر الخيال مصدر مهم لتوليد الصورة الشعريّة التي وظيفتها تصوير الحقائق النفسيّة والأدبيّة².

لقد اعتمد شعراء دولة التّرك في التعبير عن صورهم الشعريّة على فن التصوير، وقاموا بحشد التشبيهات الماديّة والصور الحسيّة، وانتزعوها من الواقع المعيش، والبيئة الشعريّة³، وظهر ذلك من خلال تعبيرهم عن الظروف التي عاشوها أيّام السلاطين الأتراك، وما طرحوه من مواضيع، ولا سيما في وصف المعارك الحربيّة التي خاضها الأتراك، وانتصروا فيها على أعدائهم، معتمدين على:

1. التشخيص

يقول عبد القاهر الجرجاني عن التشخيص "فإنّك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبيّنة، والمعاني الخفيّة بادية جلية"⁴.
لقد كان للتشخيص صورة بارزة وواضحة في الشعر أيّام السلاطين الأتراك، فكان له دلالات وإيحاءات رمزيّة، جذبت القارئ وأضفت نوعًا من الحركة والحيوية على هذا الشعر، فكان من أنجح الطرق التي استخدمها الشعراء للتعبير عن معانيهم ومشاعرهم.

(1) ينظر: بشرى صالح، ص59، 64، 62.

(2) ينظر: محمّد هلال، النقد الأدبي الحديث، ص156.

(3) ينظر: خالد يوسف، الشعر العربي أيّام المماليك، ص27.

(4) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص43.

ومن الأمثلة على ذلك شهاب الدين محمود، حيث يجعل الحصون والتُّرب والآساد والأطيار،

أشخاصًا يشكرونه على انتصاره على العدو في وقعة الفُرات. **[الكامل]**

شكرت مساعيك المعاقل والورى **والترب والآساد والأطيار**¹
ويشخص شهاب الدين محمود الفتوح ويجعلها أشخاصًا تأتي وافدة للسلطان حسام الدين لاجين

يحضُّها على ذلك الشوق والأمل لذلك البطل الشجاع الذي يأتي ملبيا فاتحًا لها. **[البسيط]**

تلقى الفتوح وقد جاءتك وافدة **يحثُّها المزعجان: الشوق والأمل**²
ومن الأمثلة على التشخيص قول أحدهم: **[الكامل]**

وغدت سيوف المسلمين خصية **عند اللقاء من هامهم بدماء**³
حيث جعل الشاعر السيوف تلتقي بالرؤوس

ويجعل الصفدي من الموت إنسانًا يخون صاحبه، فيتعفر في تراب الأرض، فقد خان الموت

السلطان المظفر حاجي بن قلاوون. **[مجزوء الوافر]**

خان الردى للمظفر **وفي الثرى قد تعفر**⁴
ويمتدح بدر الدين المنبجي الجيش في فتح طرابلس، ويجعل منهم آسادًا وطيورًا جارحة، لا أحد

يستطيع أن يتغلب عليهم. **[البسيط]**

آساد معركة عقبان مفتلة **فرسان ملحمة الموت لم تهب**⁵
وجعل جماعة من الشعراء عند رثاء الملك المنصور من الدهر إنسان يوجع القلوب وبجزنها، وفي

نفس الوقت قادر على إسعادها وإدخال المسرة والفرحة إليها بقدم الملك الأشرف خليل:

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 144/7.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 388/24.

(3) العيني، عقدالجمان، 104/2.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، 101/3.

(5) العيني، عقدالجمان، 384/2.

[الكامل]

فَلَقَدْ تَدَارَكَ بِالْمَسْرَةِ وَالْهَنَا
بِالْأَشْرَفِ الْمَلِكِ الْمُؤَيَّدِ أَحْسَنًا¹
فَلَمَّا أَوْجَعَ الدَّهْرُ الْقُلُوبَ وَأَحْزَنَّا
فَلَمَّا أَسَاءَ الدَّهْرُ فِيهِ فَإِنَّهُ
وفي موضع آخر جعل ابن النقيب رؤوس المغل إنسان يخاطبه عندما انتصر عليهم السلطان

[الطويل]

المنصور الألفي:

فَقُلْ لِرُؤُوسِ الْمَغْلِ إِنْ قَلَاؤُنَا
هُوَ السِّيفُ ضَرَابًا لِأَعْنَاقِكُمْ قَهْرًا²
ويعتمد الشاعر شمس الدين الطيبي على التشخيص، في حديثه عن أحداث مرج صفر، فيطلب
من البرق أن يحمل قصة هلاك الأعداء وكأنه شخص يعلم بتلك القصة وعليه الإخبار بها:

[البسيط]

يَا بَرْقِ بَلِّغْ إِلَى غَازَانِ قِصَّتَهُمْ
وَصِفْ فَقِصَّتَهُمْ مِنْ فَوْقِ مَا تَصِفُ³
ويجعل شهاب الدين الشارمساحي من الدهر إنسانًا، ومن تولي الحكم أثواب قصيرة عارية، ويجعل

[البسيط]

من الخير إنسانًا يهرب عندما تولي السلطان بيبرس الحكم:

فَقُلْ لِبَيْبِرسِ إِنْ الدَّهْرُ أَلْبَسَهُ
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرُ عَنْ أُمِّم
أَثْوَابَ عَارِيَةٍ فِي طَوْلِهَا قِصْرُ
لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا⁴

(1) العيني، عقد الجمان، 20/3.

(2) المصدر نفسه، 286/2.

(3) المصدر نفسه، 281/4.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/9.

2. التجسيم

وهو "تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجساماً أو محسوسات على العموم"¹.

فحينما وصف سراج الدين الوراق المدرسة الظاهرية، بعد الانتهاء من عمارتها، أصبحت كالروض في حسنها وبهائها، فأخبرت عن عطاء السلطان الظاهر الوفير فهو كالسحاب لكثرتة ووفرتة، فجعل الشاعر من الروض إنساناً يتكلم، وجعل من العطاء، سحاباً محملاً بالخير الوفير.، فالعطاء شيء

معنوي حوِّله الشعر لشيء مادي وهو السحاب: [الطويل]

ومذُ بَرزت كالروض في الحسن أنبأت بأن يديه في النوال غمام²

وجعل الشاعر شهاب الدين محمود من العزائم غمام تجلب الخير والبركة للناس، وتبكي من شدة

الفرح والاستبشار بالنصر، والعزائم أمر معنوي جعله الشاعر شيء مادي وهو الغمام. [الطويل]

عزائم جارتها الرياح فأصبحت مخلقةً تبكي عليها الغمام³

أمّا شهاب الدين محمود، فيجعل من كفالة السلطان المنصور لاجين للناس ورعايته لهم، سوراً

منيحاً يحيط بهم، ويحميهم من الأعداء، فالكفالة شيء معنوي حوِّله الشاعر لأمر مادي وهو السور.

[البسيط]

أحاط بالناس سورٌ من كفالتة ظلّ لهم وعلى أعدائه ظلّ⁴

ويجعل ابن أبي حجلة الأقدار امرأة خادمة تلبّي طلبات السلطان الناصر حسن بن قلاوون، حيث

انتصر هذا السلطان في العديد من المعارك على الأعداء، وكل ذلك بقدره الله تعالى، فكان الأقدار

(1) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص72.

(2) العيني، عقد الجمان، 1/383.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 10/364.

(4) المصدر نفسه، 24/389.

كانت خادمة له حققت له ما يطلبه ويتمناه، فالأقدار أمر معنوي جعله الشاعر شيء مادي وهو الخادمة.

[الطويل]

ومن تكن الأقدارُ خادمةً له
أرته بعونِ الله قُدرة قادر¹
3. عناصر الصورة الحسيّة

الشاعر عندما يوظف الحواس بكافة أنواعها ، البصرية، والسمعية، واللونية، والحركية، يقصد بها تمثيل تخيل ذهني معين له دلالات رمزية، وقيمة الألفاظ الحسية تكمن في أنها تقوم على تنشيط الحواس، لأن الشعر إذا كان عقلياً محضاً كان مدعاةً للملل² .
أ. الصورة اللونية:

لدلالة الألوان في الشعر أهمية خاصة، فهي تكشف عن طبيعة الذات الشاعرة في التعامل مع الواقع والبيئة المعاشة، فهي ليست مجرد ألوان تُرى بالعين المجردة، بل هي أحاسيس ومشاعر، ويترك للشاعر المجال في تغيير المدلول اللوني، بما يُناسب تجاربه الشعريّة³.
لقد أدرك الشعراء في عصر دولة الأتراك أهمية استخدام الألوان، لما تحويه من دلالات وإيحاءات تعبيرية، فاعتمدوا عليها في رسم صورهم الشعريّة، فمن تلك الصور ما يلي:

فاللون الأصفر يدل على راية المسلمين الصفراء التي تُرفع في المعركة عند الانتصار على العدو،

[الطويل]

ففي ذلك قال شهاب الدين محمود:

لك الراية الصفراءُ يقدمها النصر
فمن كَيْقَبَاذُ إن رآها وكَيْخَسْرُو⁴

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص120.

(2) ينظر: عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص132.

(3) ينظر: علي الخواج، التشكيل الصياغي، ص89.

(4) العيني، عقد الجمان، 118/3، كيقباز: هو علاء الدين ابن كيخسرو ابن قُلج أرسلان سلطان الروم السلجوقي، كان ملكاً مهيباً راجح العقل، كسر خوارزم شاه، كانت وفاته سنة"634هـ"، وكيخسرو: ابن كيقباز ابن كيخسرو السلجوقي صاحب الروم، تسلطن بعد أبيه وهو شاب، توفي سنة 643هـ ، ينظر: الصفي، الوافي بالوفيات، 290/7-291.

وقد مدح أحدهم السلطان الظاهر بيبرس، متحدثاً عن شجاعته، فسيوفه بيضاء ماضية، دلالة على

كثرة استخدامه لها فهو دائماً يَسُنُّ هذه السيوف استعداداً للمعارك التي يخوضها. [الطويل]

مليكَ اسم الله ما فتحت له صوازمه البيض المواضي ويفتح¹
ويستخدم الشهاب محمود اللون الأبيض ليدلّ على الخيل الأصيلة القويّة، ولكنّ قوائمها تخضبتُ
باللون الأحمر لشدة الدماء التي سالت في المعركة، وأشار أنّ الرماح التي استخدمت لونها أزرق قادرة

على أن تصيب عيون العدو الزرقاء التي تدل على أنّ العدو غير عربي: [البسيط]

وخاضت البيض في بحر الدماء وما أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن تهوي إلى قلب²
وجعل شهاب الدين محمود أسياف الممدوح خليل قلاوون حمراء، دلالة على كثرة الرؤوس التي

قطعها في المعركة، فهو شجاع ومقدام: [الطويل]

يظنون أنّ الصبح في طرة الدجى عجاج تراءت منه أسيافك الحمر³
ويقول شمس الدين الطيبي أنّ الرمح الطويل الذي يستخدمه في المعركة أحب إليه من قد المرأة،

فهو استغى عن الخدود الحمر، واستبدلها بخدود الخيل التي يجري بها إلى المعركة: [البسيط]

وفي قدود القتى معنى شغفت به لا بالقدود التي قد زانها الهيف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف⁴ فإنني بخدود البيض لي كلف⁴
يصور لنا الشاعر صفي الدين الحلبي شجاعة جيش الناصر محمد في المعركة، فقد ضربوا الرماح

في صدور الأعداء المدرعة، وكذلك السيوف في أبدانهم ودروعهم، والدم يتقاطر من أطراف هذه

الدروع كأنه شقائق النعمان شديدة الحمرة.

(1) العيني، عقد الجمان، 161/2.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، 408/13.

(3) عادل العزاوي، شعر شهاب الدين الحلبي، ص 221.

(4) العيني، عقد الجمان، 279/4.

[الكامل]

قَصَفُوا الْقَنَا فِي صَدْرِ كُلِّ مُدْرِعٍ
وَدَمَّ بِأَذْيَالِ الدَّرُوعِ كَأَنَّهُ
والببيض في الأبدان والأبدان
حول الغدير، شقائق النعمان¹
ومن خلال ما تقدم قام الشعراء في عصر الدولة التركية بتوظيف الصورة اللونية بما يخدم الصورة الشعرية، فرمزت للكثير من المعاني، وخاصة فيما يتعلق بالمعركة وأدواتها، فأضفت الحيوية والجمال على هذه النصوص.

ب. الصورة البصرية:

لقد استخدم شعراء دولة الترك حاسة البصر، وكونوا منها صوراً شعرية، استمدوها في الغالب من ضوء الشمس، والقمر، ومن ذلك:

قال شمس الدين الأربلي في مدح السلطان المنصور قلاوون مستخدماً الصورة البصرية، إذ ساوى الشاعر بين صفات ممدوحه وبين الضوء، فالممدوح شيء مضيء بعدله وعطائه، فلا أحد ضلّ وهلك من كثرة عدله، ورأيه السديد نور يقتدي به الناس:

[الكامل]

ما ضلّ مَنْ بضياءِ عَدْلِكَ يَهْتَدِي
فِي أَمْرِهِ وَبِنُورِ رَأْيِكَ يَقْتَدِي²
استخدم الشاعر بدر الدين المنبجي الصورة الضوئية، للاستبشار والفرح فالشمس أشرقت من جديد

بعودة السلطان بعد أن غابت طويلاً، حيث كان السواد وظلام الليل شديد في فترة غيابه: [البسيط]

إِنْ غَبَتَ عَنِ وِطَنِ كَادَتْ تَغْيِرُهُ
فَالشَّمْسُ أَحْسَنُ مَا تَجَلَّى إِذَا بَزَغَتْ
للبعدِ عنكَ وحاشاه يد الغير
من بعد غيبتها ليلاً على النظر³
وشبه ابن أبي حجلة في السلطان الأشرف علاء الدين كجك، كالبدن المضيء في الليل، ويكون

مشرقاً في النهار بصورة أجمل من ضوء الشمس نفسها:

(1) صفي الدين الحلي، الديوان، ص100.

(2) العيني، عقد الجمان، 352/2.

(3) المصدر نفسه، 161/5.

[الطويل]

بدا الأشرفُ السلطانُ كالبدْرِ في الدُّجَا وبعدَ طلوعِ الشمسِ أبهى من الشمسِ¹
ويمدح ابن أبي حجلة السلطان الناصر حسن، ويجعل من وجه السلطان كالهلال المنير، وكالبدر

[البسيط]

المضيء، فلا فرق بين نور البدر، ونور وجهه:

عامٌّ يهالُ وجهه بهلاله يدعو بطولِ العمرِ للسلطان
لا فرقَ بينَ ضياءِ البدرِ ووجهه فأعيدُه بالنورِ والفرقان²
ج. الصورة السمعية:

تمثلت الصورة السمعية في أصوات حزينة على الفقد وعلى الحال السيء، وأصوات فرح بالنصر،
وكانت الأمثلة قليلة على ذلك، منها:

يجعل محيي الدين بن عبد الظاهر من القبر إنسان يصيح على موت السلطان الظاهر بيبرس،

[الخفيف]

فالصياح صوت حزين عبّر به الشاعر عن شدة الفقد والألم على المرثي:

صاحَ هذا ضريحه بين جفنا يّ فزوروا من كل فج عميق³
ويتحسر مجد الدين ابن سحنون على حال الأرض التي فرضت عليها الضرائب، مستخدمًا

[الكامل]

الصوت الحزين (واهاً) دلالة على شدة الحسرة والألم.

واهاً لأعطافِ الغصونِ وما الذي صنّعتهُ أيدي البردِ في أثوابها
ويصوّر لنا شمس الدين الطيبي صوت سهيل الخيل في مرج صفر، كألحان أوتار الآلة

[البسيط]

الموسيقية بل هي ألد وأجمل منها صوتاً:

والخيلُ في طلبِ الأوتارِ صاهلةً ألدُّ لحناً من الأوتارِ تأتلف⁴

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص164

(2) ابن أبي حجلة، الديوان، ص272

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، 337/10.

(4) المصدر نفسه، 362/4

كان للصورة السمعية دورًا في التعبير عن مشاعر وأحاسيس الشعراء وما يمرون به في حياتهم من أفراح وأحزان، مستخدمين أصوات راقت للسامع وأطربته.

د. الصورة الحركية:

إنّ الذي يزيد التشبيه جمالاً ورونقاً ودقّةً هو أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات¹. كان حضور الصورة الحركية واضحاً وجلياً في الشعر أيام السلاطين الأتراك، حيث شكلت لوحة فنية رائعة، وخاصة في خوض المعارك وفتح الحصون والقلاع، فتبدأ بمجيء موكب السلطان وتحركه للوصول لمكان الحدث، ثم حركة الجيش، ثم خوض المعركة فتكون مفعمة بالحركة، فالخيول تجري، والسيوف والرماح تضرب العدو، والجيوش تشتبك مع بعضها البعض، والمياه تحمل الجيوش المدججة بالسلاح، وكل هذا تمّ تصويره والإشارة إليه سابقاً في وصف المعارك، ووصف قوة الجيش، وشجاعة السلطان.

ومن الأمثلة التي لم تذكر سابقاً، ما قاله علاء الدين بن عبد الظاهر عندما قام بتصوير ما جرى في معركة مرج صُفر، إذ وصلت جيوش المُغل إلى سرحة المرج بأعداد كبيرة، فملأت السهل والوعر من كثرتها، وأتى السلطان محمّد بن قلاوون يقود الجيش والخيول، فوقعت المعركة وهجم المسلمون على الأعداء، واشتبك الجيشان مع بعضهما، فالصورة الحركية بدت واضحة، استحضر الشاعر فيها

[الطويل]

وقد ملأت سهل البسيطة والوعرا
يقود العتاقَ الجردَ والعسكر المجرا
لدى الرّوعِ عن بحرٍ غداً صادمًا بحرًا²

جموع الجيش والخيول والاشتباك بين الطرفان:

وجاءت جيوش المغل كالرمل كثرة
وأقبل سلطان الزمان محمداً
فكرت وكّر المسلمون فلا تسأل

(1) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص180.

(2) العيني، عقد الجمان، 4/271.

وعندما مدح ابن أبي حجلة أبي السلطان المظفر حاجي، مستخدمًا عناصر الطبيعة المتحركة، فجعل من أغصان الشجر تطرب وترقص عندما تغني الطيور وهي واقفة على عيدانها، وهذا كله فرحًا بالسلطان، فجمع الشاعر بين الصورة الحركية، والصورة السمعية:

[الكامل]

رَقَصَتْ لَهُ الْأَغْصَانُ فِيهِ عِنْدَمَا غَنَّتْ عَلَى الْعِيدَانِ فِيهِ طَيُورٌ¹
هـ. الصورة الشمية:

كانت الصورة الشمية من أقل الصور الحسية ورودًا في الصور الحسية، ومما عثرت عليه في هذه الدراسة، ما يلي:

يصور الشاعر ابن أبي حجلة سمعة ممدوحة الطيبة بين الناس كانتشار رائحة الطيب والمسك الزكية العطرة المنتشرة في الهواء، ويشتمها الجميع من حوله:

[الكامل]

سُلْطَانَنَا فِي مِصْرَ يَا حَسَنَ الثَّنَا مِنْ طَيْبِ ذِكْرِكَ كُلِّ مَسْكِ يَعْبُقُ²
وعندما وصف ابن أبي حجلة قصر السلطان الناصر محمد قلاوون، مستخدمًا الصورة الشمية، فعلى روضه الزاهي بالأزهار، والورود تهب نسائم الصباح العليل، فتنتشر روائح الطيب الزكية في المكان.

[الكامل]

فَنَسِيمُهُ يَرُوي حَدِيثَ الرُّوضِ عَنْهُ عَنَّ الْعَبِيرُ بِصَحَّةٍ مَعْتَلَةٍ
وَطَيَابُهُ كَالطَّيْبِ مَرَّ بِهِ الصَّبَا وَشِمَالُهُ فِيهِ تَجَمُّعُ شَمْلِهِ³
لقد تناول الشعراء العطور والطيب في التعبير عن صورهم الشعرية، بصورة واضحة وجلية، محدثةً نغمًا موسيقيًا، ومحققة الغرض المطلوب.

ومن خلال دراسة الصور الحسية، نجد أنّ الشعراء تَفَنَّنُوا في عرض صورهم الشعرية، حيث كانت تلك الصور مستمدة من البيئة التي عاشوها، فخرجت بأبهى الصور وأجملها.

(1) ابن أبي حجلة، الديوان، ص110.

(2) المصدر نفسه، ص192.

(3) المصدر نفسه، ص225.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي تتمّ بعزته وجلاله الصالحات، وبحمده يُبتدأ ويختم كل أمر،
والصلاة والسلام على رسولنا الكريم، صل الله عليه وسلّم، وبعد؛
فقد تمّ بحمد الله وفضله إنهاء دراسة "صورة السلطان في دولة التّرك في الشّعر العربيّ في
الفترة "648هـ - 784هـ"، دراسة موضوعيّة وفنيّة"، ومن خلال هذه الدّراسة، توصلت إلى نتائج
وتوصيات عدّة، هي:

أولاً: النتائج

1. ركز الشعر في عصر دولة التّرك على رسم صورة صادقة عن الملاحم الإسلاميّة والأحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار، والتي كان للسلطين الأتراك الدور الكبير في حماية البلاد من خطرهم، فوصف الشعراء الانتصارات والفتوح الكبرى التي حققتها السلطين.
2. من الصور الإيجابية التي رسمها الشعراء للسلطين الأتراك، صورة الشجاعة ظهرت من خلال الانتصارات والفتوح التي خاضها السلطين ضد الفرنجة والتتار، فمدحوهم الشعراء وأثنوا عليهم، وعبروا عن ذلك في أشعارهم حيث سطرّوا البطولات التي حققتها أولئك السلطين أثناء تصديهم لأعداء الإسلام، بعواطف جيّاشة وصادقة.
3. وصوّر الشعراء عدل بعض السلطين وأظهروهم بصورة مثالية تتصف بالعدل، ورفع الظلم عن النّاس، وتحقيق الأمن والأمان، والإصلاح بين النّاس، وقد تكون هذه الصورة غير واقعيّة رسمها الشعراء لتعبير عن رغبتهم بتحقيق هذه الصورة على أرض الواقع.
4. وأبانت الدّراسة، حبّ السلطين الأتراك للعلم، وتشجيعهم للنّاس على طلبه، بالإضافة إلى فضلهم في بناء العديد من المدارس ودور العلم، وكان السلطان نفسه على علم واسع بعلم متنوعة.

5. وظهرت صورة الكرم للسلطين الأتراك بصور متنوعة، فجعلهم الشعراء سُحابًا، وبحرًا، وسيلاً، لكثرة كرمهم، وقاموا بتوزيع الصدقات والهبات على النَّاس، ووزعوا الحصون والقلاع والمدن على الأمراء.

6. تحلّى بعض السلطين الأتراك بصفة التسامح والعفو، فنراهم يعفوا ويصفحوا عن من أساء لهم من الأعداء إذا جاءوا إليهم طالبين ال أمان، ويعاملوا أسراهم معاملة حسنة، ويقدموا العون والحماية للرعيّتهم.

7. وبيّنت الدّراسة شخصية السّلطان الملتزمة بالدّين، والحريصة على الدفاع عن الدّين الإسلاميّ، ومحاربة الأعداء، والمحافظة على أداء فرائض الإسلام من صوم وصلاة وحج، والقضاء على مظاهر الفساد.

8. وكشفت الدّراسة عن إهتمام السّلطان بعمارة بلاده وإصلاحها، حيث بنى كل ما يحتاجه النَّاس من مدارس، ومساجد، ومشافي، وقنوات مياه، واهتمّ بأن يكون كل ما يُبنى بأبهى صورة، وأنّ تعمّ فائدته للنّاس كلهم.

9. رثى الشعراء السلطين الأتراك بعد موتهم بأجمل الأشعار، فحزنوا لموتهم، وذرفوا الدموع على فراقهم، ثمّ راحوا يذكرون صفاتهم الحميدة التي تحلوا بها، فيستمرّ الوفاء للسلطان حتى بعد وفاته.

10. ظهرت الصورة السلبية لبعض السلطين الأتراك، حيث اتضح أنّ الشعراء كانت لديهم الجُرأة لانتقاد السلطين أنفسهم، فأظهروا من خلال أشعارهم جوانب الفساد والظلم التي كان يمارسها السلطين على الرعيّة فقد نهبوا خيرات البلاد، وفرضوا الضرائب، وأخذوا يتسابقون على الحكم دون مراعاة لشروط السلطنة، فعبر الشعراء عمّا يعتري نفوسهم من أجل القضاء على الظواهر السلبية في المجتمع.

11. اهتم الشعراء بالجانب الموسيقي، ولم يقتصروا على بحر معين في شعرهم، بل استخدموا بحوراً

شعرية متنوعة، قاصدين تحقيق الجرس الموسيقي الذي يريح القارئ ويطربه.

12. اعتنى الشعراء بالمحسنات البديعية، وخاصة الجناس، والطباق، والتكرار، والتضمين، والتورية،

لتحقيق النغم الموسيقي، وإيصال المعنى المطلوب.

13. نوع الشعراء في الصورة الشعرية، وتفننوا في عرضها، مستمدين تلك الصور من حياتهم

وبيئتهم التي عاشوا فيها.

ثانياً: التوصيات

من خلال هذه الدراسة أوصي الباحثين بدراسة هذا الموضوع في الحقبة الثانية من هذا العصر،

ومقارنة الموضوع بين الحقتين الأولى والثانية، أو بين عصرين مختلفين.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر

- ابن إياس، محمّد الحنفي (ت930هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمّد مصطفى، ط1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، 1363م.
- البغدادي، إسماعيل باشا (ت1339هـ)، هديّة العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1951م
- ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت 874هـ)، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، د.ط، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2012م.
- ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت 874هـ)، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل عبد العزيز، د. ط، القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1997م.
- ابن تغري بردي، يوسف الأتابكي (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم محمّد شمس الدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1992م.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1991م.
- الجوالقي، موهوب بن أحمد (ت540هـ)، المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق ف. عبد الرحيم، ط1، دمشق: دار القلم، 1990م.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 779هـ)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين وزميله، د.ط، مصر: دار الكتب، 1976م.
- الحلي، صفي الدين (ت752)، الديوان، د.ط، بيروت: دار بيروت، 1983م.

- الحموي، ابن حجة (ت873هـ)، *خزانة الأدب وغاية الأرب*، تحقيق كوكب دياب، ط2، بيروت: دار صادر، 2005م.
- الحموي، ياقوت (ت626هـ)، *معجم البلدان*، د.ط، بيروت: دار صادر، 1993م.
- الحنبلي، ابن العماد (ت1089هـ)، *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط وزميله، ط1، بيروت: دار ابن كثير، 1986م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد محمد (ت681هـ)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق إحسان عباس، د.ط، بيروت: دار صادر، 1972م.
- الذهبي، شمس الدين بن محمد (ت748هـ)، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق عمر تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1999م.
- الذهبي، شمس الدين بن محمد (ت748هـ)، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق حسّان عبد المنان، د.ط، لبنان: بيت الأفكار الدوليّة، 2004م.
- الزركلي، خير الدين (ت1396هـ)، *الأعلام*، ط15، بيروت: دار العلم للملايين، 2002م.
- زهير، بهاء الدين (ت911هـ)، *الديوان*، تحقيق محمد الجبلوي وزميله، ط2، دار المعارف، 1982م.
- السيوطي، جلال الدين (ت911هـ)، *حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة*، تحقيق محمد إبراهيم، ط1، إحياء الكتب العربيّة، 1968م.
- الصفدي، صلاح الدين بن أبيك (ت764هـ)، *أعيان العصر وأعوان النصر*، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دمشق: دار الفكر، ط1، 1998م.
- الصفدي، صلاح الدين بن أبيك (ت764هـ)، *الوافي بالوفيات*، تحقيق أحمد الأرنؤوط وزميله، ط1، بيروت: دار إحياء التراث، 2000م.

- ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ)، الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية، برلين: مطبعة أونسداجن، 1902 م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ)، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مرار كامل وزميله، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1961م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين (ت692هـ)، الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظّاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976م.
- العسقلاني، ابن حجر (ت845هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، د.ط، حيدر آباد: دار المعارف العثمانية، 1930م.
- العسكري، أبو هلال (ت395هـ)، الصناعتين - الكتابة والشعر، تحقيق علي الجاوي وزميله، ط1، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، 1952م.
- العيني، بدر الدين (ت855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.
- القزويني، جلال الدين محمد (ت739هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م.
- القيرواني، ابن رشيقي (ت456هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2000م.
- الكتبي، محمد بن شاکر (ت764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، د.ط، بيروت، دار الثقافة، د. ت.
- ابن كثير، إسماعيل (ت774هـ)، البداية والنهاية، د.ط، بيروت: مكتبة المعارف، 1990م.
- المتنبّي، أحمد بن الحسين (ت354هـ)، الديوان، د. ط، بيروت: دار بيروت، 1983م.

- المحار، سراج الدّين (ت 711هـ)، الديوان، تحقيق أحمد عطا، د.ط، القاهرة: مكتبة الآداب، 2001م.
- المقرئزي، تقي الدّين (ت 845هـ)، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، تحقيق كرم فرحات، ط1، الهرم: الدراسات والبحوث الإنسانية، والإجتماعية، 2007م.
- المقرئزي، تقي الدّين (ت 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997م.
- المقرئزي، تقي الدّين (ت 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم وزميلته، ط1، القاهرة: دار الأمين، 1997م.
- المنصوري، بيبس (ت 725هـ)، التحفة الملوكيّة في الدّولة التركيّة، تحقيق عبد الحميد حمدان، ط1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1987م.
- ابن منظور، جمال الدّين محمد (ت 711هـ)، لسان العرب، د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت.
- ابن نباتة، جمال الدين، الديوان، د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت 199هـ)، الديوان، مطبعة جمعية الفنون، 1384م.
- ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت 749هـ)، الديوان، تحقيق أحمد الهيب، ط1، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1986م.

ثالثاً: المراجع

- أمين، أحمد، الصعلكة والفتوة في الإسلام، د.ط، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.
- أمين، أحمد، النقد الأدبي، د.ط، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م
- أمين، بكري، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ط3، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980م.
- أنيس، إبراهيم، موسيقى الشعر، ط2، مصر: مكتبة الإنجلو المصرية، 1952م.
- الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، لبنان: طرابلس، 1995م.
- إبراهيم أنيس وغيره، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، 2004م
- إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، ط3، مصر: دار الفكر العربي، د.ت.
- باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط1، دمشق: دار الفكر، 1989م.
- الجمال، أحمد صادق، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، د.ط، القاهرة: الدار القومية للطباعة، 1966م.
- الحبازي، مشهور، شعر الرشيد النابلسي، رام الله: المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، 2003م
- حلاق، حسان وزميله، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ط1، بيروت: دار العلم، 1999م.

- خواجه، علي، التّشكيل الصياغي قراءة في الشّعر الحديث، ط1، رام الله: دار البيرق العربي، 2000م.
- رضا، أحمد، معجم متن اللغة، د.ط، بيروت: مكتبة الحياة، 1958م.
- سلّام، محمّد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، د.ط، مصر: دار المعارف، 1971م.
- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط2، القاهرة ك مكتبة الآداب بالجماعين، المطبعة النموذجية، 1962م.
- شاكّر، محمّد، التاريخ الإسلامي . العهد المملوكي، ط5، بيروت: المكتب الإسلامي، 2000م.
- شير، أدي، معجم الألفاظ الفارسية المعرّبة، ط2، القاهرة: دار العربي، 1987م.
- صالح، بشرى موسى، الصورة الشعريّة في النّقد العربي الحديث، ط1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994م.
- طقوش، محمّد، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشّام، ط1، بيروت: دار النفائس، 1997م.
- عاشور، سعيد، العصر المماليكي في مصر والشّام، ط1، القاهرة: دار النهضة، 1976م.
- عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، القاهرة: دار النهضة، 1992.
- عاشور، فايد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدّولة المملوكية الأولى، قدم له جوزيف يوسف، مصر: دار المعارف، 1974م.
- عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفانها، د.ط، عمان: دار الفرقان، 2005م.
- عبد الرحيم، رائد، علاء الدّين الوداعيّ الكنديّ حياته وشعره، ط1، عمان: دار كنوز المعرفة، 2017م.
- العزاوي، عادل، شعر شهاب الدّين محمود الحلبي، ط1، بغداد دار الفراهيدي، 2013م.

- عتيق، عبد العزيز، علم العروض والقافية، د.ط، بيروت: دار النهضة، 1987م.
- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط1، بيروت: دار العلم للملايين، 1979م.
- قحطان، محمد، أساسيات الشعر وتقنياته، د.ط، شبة الألوكة، د.ت.
- قطب، سيّد، التصوير الفني في القرآن، د.ط، القاهرة: دار الشروق، د.ت.
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط1، دمشق: دار الكتب الظاهرية، 1993م.
- مطلوب، أحمد، البلاغة والتطبيق، ط2، العراق: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، 1999م.
- الميداني، عبد الرحمن، البلاغة أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دمشق: دار القلم، 1996م.
- الهاشمي، أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق يوسف الصميلي، د.ط، بيروت: المكتبة العصرية، 1999م.
- هلال، محمد، النقد الأدبي الحديث، د.ط، القاهرة: دار نهضة مصر، 1997م.
- يوسف، خالد، الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، ط1، بيروت: النهضة العربية، 2000م.

فهرس المحتويات

الإهداء.....
إقرار.....	أ.....
الشكر والتقدير.....	ب.....
المُلخَص باللغة العربية.....	ج.....
الملخص باللغة الإنجليزي:.....	د.....
المقدمة.....	ه.....
1.....	التمهيد: الحياة العامة في دولة التّرك.....
2.....	أولاً: الحياة السياسيّة:.....
9.....	ثانياً: الحياة الاجتماعيّة.....
11.....	ثالثاً: الحياة الاقتصاديّة.....
11.....	أولاً: الزراعة.....
12.....	ثانياً: الصناعة.....
13.....	ثالثاً: التّجارة.....
13.....	1. التّجارة الخارجيّة:.....
13.....	2. التّجارة الداخليّة:.....
14.....	رابعاً: الحياة الفكريّة.....
15.....	1. كتب التاريخ:.....
16.....	أ. كتب تراجم الأعلام:.....
16.....	ب. كتب السيرة النبويّة:.....
17.....	ج. كتب تاريخ مصر والشام:.....
17.....	د. تاريخ الخطط والآثار:.....
18.....	2. المؤلفات الدينيّة:.....
18.....	أ. مؤلفات الأصول والفقّه، منها:.....
18.....	ب. كتب تفسير القرآن الكريم:.....
18.....	ج. كتب الحديث:.....

3. مؤلفات العربيّة: 19.....
- أ. كتب النحو والصرف 19.....
- ب. بقية فنون العربيّة: 19.....
4. العلوم الكونية: 20.....

21 الفصل الأوّل: صورة السلطان في دولة التّرك

أوّلاً: الصورة الإيجابية للسلطان في دولة التّرك: 22.....

1. النّسب الرفيع: 22.....

2. الشجاعة 24.....

3. العدل 44.....

4. حب العلم 46.....

5. الكرم: 48.....

6. التسامح والعفو: 53.....

7. الإلتزام بالدين ونصرته: 55.....

8. محبة التّاس للسلطان 61.....

9. الوفاء للسلطان 66.....

10. الجمع بين الصفات المعنوية للسلطان 70.....

11. الصفات الحسيّة للسلطان 74.....

12. العمارة وأعمال الإصلاح 76.....

أ. المدارس 76.....

ب. الإيوان 79.....

ج. عمارة ميدان دمشق 80.....

د. بناء المساجد 81.....

هـ. بناء التّرية: 82.....

ثانياً: الصورة السلبية للسلطان في دولة التّرك 84.....

1. البطش والظلم 84.....

2. كثرة السلاطين 86.....

3. صغر سن السلطان 86.....

4. حب النساء 87.....

5. فرض الضرائب 88.....

90	الفصل الثَّانِي: الدَّرَاسَةُ الفَنِّيَّة
91	أولاً: اللغة
91	1. العامية
92	2. الألفاظ الأعجمية
94	3. تأثر الشعر بلغة القرآن الكريم
97	ثانياً: الأسلوب
98	- المحسنات البديعية
98	1. الطباق
100	2. التورية
101	3. التضمين
103	ثالثاً: موسيقى الشعر
103	1. الموسيقى الخارجية
103	أ. البحور
105	ب. القوافي
105	1. القافية المقيدة
106	2. القافية المطلقة
106	- مكونات القافية
106	1. الروي
106	2. الوصل
107	3. الخروج
108	4. الرّدْف
109	5. التأسيس
111	2. الموسيقى الداخلية:
111	أ. الجناس:
111	1. الجناس التام:
112	2. الجناس غير التام (الناقص)
112	أ. الجناس اللاحق
113	ب. الجناس المضارع:
114	ج. الجناس المحرّف:
115	د. الجناس المطرّف:

115	هـ. الجناس المنذيل
116	و. الجناس المقلوب
116	ي. الجناس المكتنف
117	ب. رد العجز على الصدر:
118	ج. التكرار:
118	1. تكرار الأسماء
119	2. تكرار الأفعال
119	3. تكرار الحروف
119	4. تكرار الكلمة
120	رابعاً: الصورة الشعريّة:
120	1. التشخيص
123	2. التجسيم
124	3. عناصر الصورة الحسيّة
124	أ. الصورة اللونية:
126	ب. الصورة البصريّة:
127	ج. الصورة السمعيّة:
128	د. الصورة الحركيّة:
129	هـ. الصورة الشمية:
130	الخاتمة
130	أولاً: النتائج
132	ثانياً: التوصيات
133	المصادر والمراجع
133	أولاً: القرآن الكريم
133	ثانياً: المصادر
137	ثالثاً: المراجع
140	فهرس المحتويات